سلسلة الأدب

ليلة سفر

محمد ناجي

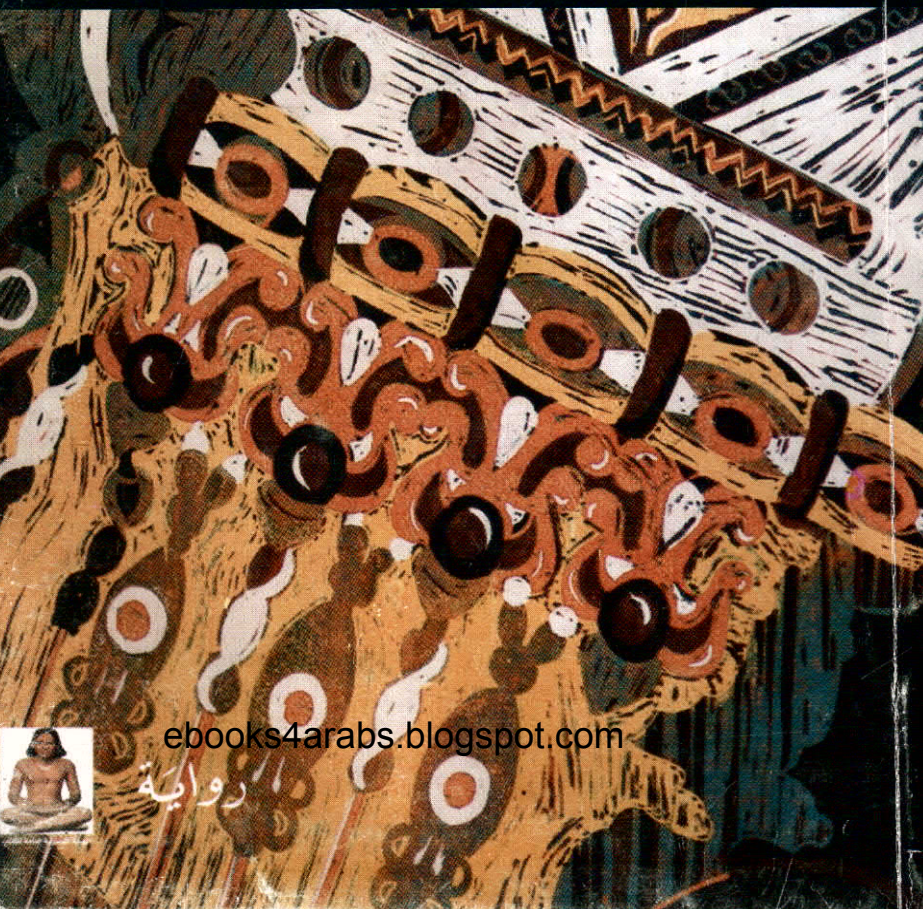

ebooks4arabs.blogspot.com

رواية

لَيْلَةُ سَفَرٍ

مكتبة الأسرة ٢٠١٠
برعاية السيدة
سوزان مبارك
المشرف العام
د . محمد صابر عرب
تصميم الغلاف
د . مدحت متولى
الإشراف الفنى
ماجدة عبد العليم
على أبو الخير
صبرى عبد الواحد
التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب
الجهات المشاركة
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
المجلس القومى للشباب
وزارة التنمية الإقتصادية

ليلة سفر

رواية

ebooks4arabs.blogspot.com

محمد ناجي

ليلة سفر

لوحة الغلاف من أعمال الفنانة : أمينة فريد

ناجى ، محمد .
ليلة سفر / محمد ناجى. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠.
١٣٦ ص ؛ ٢٠ سم (سلسلة الأدب).
تدمك ١ - ٤٦٧ - ٤٢١ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١ - القصص العربية
أ - العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٦٥٧ / ٢٠١٠

I.S.B.N 978-977-421-467 -1

ديوى ٨١٣

توطئـة

مثل كل الأحلام الكبرى التى بزغت منها مشاريع عملاقة أدت إلى تطور مجتمعاتها، ولهذا أرسى **مهرجان القراءة للجميع** جذوره الراسخة فى الأرض المصرية منذ عشرين عامًا.. لقد انطلق أهم مشروع ثقافى فى العالم العربى عام ١٩٩٠ تحقيقًا لحلم السيدة الفاضلة **سوزان مبارك** راعية المهرجان، وصاحبة فكرته والتى دشنته آنذاك بافتتاح عشرات المكتبات فى جميع ربوع الوطن، وأطلقته فى سماء الواقع برؤية واضحة ومحددة تستند على الإيمان بأن الثقافة هى وسيلة الشعوب لتحقيق التقدم والتنمية بما لها من قدرة على تحويل المعارف المختلفة إلى سلوك متحضر، وإعلاء المُثل العليا، وقيم العمل والإنجاز، وإشاعة روح التسامح والحرية والسلام التى دعت إليها جميع الأديان، بهدف أن تُكوِّن ثقافة المجتمع بتأصيل عادة القراءة وحب المعرفة، لذا فإن وسيلة المعرفة الخالدة ستظل هى الكتاب الذى يسهم فى إرساء دعائم التنمية، وتحقيق التقدم العلمى المنشود.

لقد اتسعت روافد الحملة القومية **للقراءة للجميع** طوال الأعوام العشرين الماضية، وأصبحت تشكل فى مجملها دعوة حضارية للبناء الروحى والفكرى والوجدانى للإنسان المصرى نابعة من الإيمان العميق بأن الثقافة هى بكل المقاييس أفضل استثمار لبناء مجتمع المستقبل، وهى الجسر الرئيسى للشباب للحاق بركب الحضارة المعاصرة، بل تكاد تكون هى الوسيلة الوحيدة لنشر قيم العلم والتسامح والديمقراطية والسلام الاجتماعى والتطور الحضارى، وترسيخ قيم المواطنة وقيمة دور المرأة،

وتعزيز قيمة التجدد الثقافى والتفكير النقدى والحوار ومعرفة الآخر والتبادل والتواصل المجتمعى والدولى، وأيضًا إبراز تواصل الإبداع المصرى من خلال نشر الآثار الأدبية لـ «مختلف أجيال المبدعين».

ومنذ العام الرابع لمهرجان **القراءة للجميع**؛ أصبحت **مكتبة الأسرة** من أهم روافده، وقدمت طوال ستة عشر عامًا دون توقف ملايين النسخ بأسعار رمزية لإبداعات عظيمة لشباب المبدعين وكبار الكتاب الذين أثروا المشروع فكريًا وثقافيًا وعلميًا ودينيًا وتراثيًا وأدبيًا، كما قدمت الموسوعات الكبرى التى تُعتبر أعمدة هذه المكتبة، والتى شكلت مسيرة فكر النهضة فبعثت فى نفوس الشباب من جديد الإحساس بالفخر بما قدمته أمتهم من كنوز إبداعية ومعرفية وفكرية للبشرية، وأقامت جسرًا يصل بين ماضيهم وحاضرهم، ويصل بين حاضرهم ومستقبلهم، كما بعثت فيهم روح الانتماء القوى لهويتهم المصرية والعربية، ولما لا وقد أطلت عليهم مكتبة باذخة الثراء تتكئ على مؤلفات حضارة مصرية قديمة ما زالت قادرة على إدهاش العالم حتى هذه اللحظة بما احتوته من تقدم فنى وفكرى وعلمى وفلسفى وأدبى شكَّل فجر «ضمير الإنسانية» وحضارة إسلامية أنارت ظلمات أفلاك البشرية لحقب طويلة من الزمان، ووضع أعلامها بعض أعمدة الحضارة المعاصرة فى مجالات الطب والفلك والرياضيات والآداب!.

لهذا كله ستواصل **مكتبة الأسرة** هذا العام نشر رسالتها بالسعى قدمًا نحو تطوير أدائها، وتحقيق حلمها الأكبر بتكوين ثقافة المجتمع كله بأيسر السبل، والتأكد من اطلاعه على جميع ما أنتجته عبقرية الأمم ممثلة فى تراثها الأدبى والعلمى والفكرى المستنير.

مكتبة الأسرة

٢٠١٠

قلب الولد وجـهـه فـوق، وطارد بنظراته الطائر الوهمـى الذى انفلت فى فضاء الغرفة:

ـ هِشّ.. هِشّ.

انزعج الجدّ عبد القوى؛ ارتعش رأسه، ورفرفت يداه حول أذنيه ليتجنب الأذى:

ـ إيه؛ نحلة؟

ـ لا، عصفور الأوهام يا جدى، هش هش.

دار الجدّ بعينيه فى فضاء الغرفة باحثا عن الطائر المنفلت:

ـ خايلتنى يا نصر، اجلس يا ابن الغالى واسمعنى.

الولد لم يجلس، خرج وهو يصفر للعصفور الوهمى:

ـ باى باى يا عصفور.

تبعه الجدّ حتى أول السلّم:

ـ لو فكرت لعرفت أن كلامى صح، وطاوعتنى.

ـ خلاص، الكلام الآن لا يفيد.

ـ خلاص؟!

ـ خلاص؛ السفر غدا، السادسة صباحا.

رغم طنين أذنيه كان يسمع خطواته بوضوح فوق الدرج المتآكل، لكن بصره الكليل لم يقدر أن يتابعه فى زوايا السلم المعتمة. حاول أن يضيف شيئا لكنه حشرج:

- هه.

وهو يستدير تعجّب كيف استطاع أن يتبعه كل هذه المسافة دون أن يتوكّأ على عصاه. تساند على الحائط، ودق باب جارته الآنسة كوكب. فتحت وكأنها كانت تنتظر خلف الباب الموارب.

- سيسافر غدا ياست الناظرة.

- ربنا يسهّل طريقه ويردّه فرحان القلب.

- الآن فقط أخْبَرنى، قالها وجرى.

- وقته ضيق.

- صح، زنق نفسه.

بين الشقتين ردهة بلا سقف، الطابق الثالث والأخير. رفع رأسه، ورأى نهار الشتاء يطفىء بقايا شمسه فى السحب المعتمة. خطا خطوة نحو بابه وحدّث نفسه: لم يعد أمامه إلا سواد الليل.

فى الخطوة التالية تذكّر، فأعاد قدمه إلى مكانها:

- النحلة.

- هه؟!

- فى الشقة نحلة، ظلت تطنّ حوله حتى خاف، هرب وتركنى لها، لا أعرف أين راح.

- ربما ذهب ليقابلها.

تعجب، خبط فخذيه بيديه، وهبط بصدره كأنه يقفز:

- من، البنت؟!

- الصبح سألت عنه، تسحّبت كأنها تمشى على قشر بيض وطرقت بابى. لما عرفت أنه غير موجود فكّرت أن تقابلك. فكّرت وخافت منك، فرّت على السلم قبل أن تراها.

- آه لو رأيتها، ربما استطعت أن أقنعها.

- بماذا تقنعها؟!.. هى أيضا لا تريده أن يسافر: تبكى وتقول: كيف يسافر ويتركنى الآن؟!.

- كلام.

- لو سمعْتَ لصدّقت، تقول ذلك وتبكى، ربنا يساعدها.

- لو تريده بجد تأتى من باكر.

- أنت عقّدت الأمر، ولو وافقت زمان كنت ارتحت.

- الآن أنا موافق؛ الشقة له ولها، وأنا ضيف.

راقبت الفأر المهرول فى الشرخ، وقالت:

- الآن الحال اختلف.

نفخ، ورمى الأمر بظهر يده:

- هو حُرّ.

عقدت ذراعيها على صدرها وأطرقت، هو أيضا أحس بالبرد. ألقى نظرة على سماء الشتاء، وأصغى لطنين أذنيه، ثم استدار وشجع نفسه:

- لدغتها تشفى من الروماتيزم، ربما تنفعنى.

وهو يغلق الباب فكر أن يغيّر الترباس. لن ينزع القديم، وإنما سيضيف إليه آخر بلسان عريض. يحتاج أيضا أن يثبت الترباسين الجانبيين للضلفة اليسرى، ويسد الفراغ بين شفتى الباب بخشبة حتى يمنع الفئران والسحالى والبرد.

لو مر صنّارة سينياديه، ويطلب منه أن يشترى التربّاس بنفسه.

شاب صنّارة وما زال فى الصنعة صبيا، لا يعرف كيف يسحب الفارة ولا يجرّ المنشار، لكنه معلّم فى دق المسمار، ولهذا يسخر منه أسطوات الصنعة ويسمّونه صنّارة بسبب رأسه الصغير الذى يشبه رأس المسمار الصنّارة.

كل الاسطوات يسخرون من صنعته ومن هيئته ومن صوته العجيب، لكنهم لا يبخلون عليه؛ أجره صدقة، ووجوده فى المحل بركة. عموما هو لا يكلفهم كثيرا؛ يظهر يوما ويغيب عشرة. ينتقل من محل إلى آخر بمزاجه كأنه يتنقل بين مكاتب وزارة واحدة، أو ربما كان ينسى كل صباح أين كان بالأمس.

لا علاقة له الآن بالنجارة، ولا يتقن إلا كنس المحلات ورشّها وهشّ الذباب؛ مقاه ومطاعم ومخابز ومحلات خياطة وحلاقة ونجارة. يكنس ويرش ثم يجلس على الرصيف منتظرا أجره، أو ينصرف بسلام. لا يزيد الأجر غالبا عن سندوتش أو مشروب، أحيانا قصّة شعر أو جلباب فى العيد.

الخواجة عدلى كان يحرص على أن يعطيه أجْرَه نقودا؛ نصف فرنك. يختبر رنة فضته على رخام المكتب ويناوله له، يقلّبه صنّارة فى كفه متعجبا قبل أن يسقطه فى جيبه، ربما لا يعرف ماذا يفعل به.

يغيب صنّارة ويظهر فجأة غارقا فى بلاهته الأبدية، وحين يهلُّ على دكان يتفاءل صاحبه بظهوره، يسند مرفقه على خشب الباب ويرقبه ضاحكا، وهو يقترب خطوة خطوة بجلبابه الأبيض ورقبته الطويلة ورأسه المثلث. لا يستطيع أحد أن يحدد اتجاهات نظراته، تبدو عيناه مثل فجوتين فى قناع خشبى لم تكتمل صنفرته ولا تلوينه.

من الشرفة الضيقة راقب الجدّ عبد القوى الشمس الآفلة. لا يجلس فى الشرفة ولا يتكئ بيديه على سورها. يخاف: نظرة ويدخل.

محلات: بقّال وحلاق وخرّاط وكشك خشبى لبيع الخبز. صغار يلعبون ويسعلون، وأبواق سيارات فى الميدان البعيد.

دقّق فى العابرين باحثا بينهم عن صنّارة، لكنه لم يستطع أن يميّز الرؤوس. تأمل البيت الجديد الذى شرّخه الزلزال، ونظر للنساء المعلقات على حبال الغسيل، وحدّث نفسه: هزّة واحدة، والكل يقع.

شقة كوكب على الواجهة الأخرى للبيت، سوق خضار ومخبز ومئذنة. أكثر من جهاز كاسيت، كل شريط صوت وحده. أسلمت أذنيها لصوت مغن صعيدى يدق على الربابة، كلامه ضائع فى زحام السوق، لكن النغم سرق قلبها. حاولت أن تغنى معه كلاما من عندها، لكن كلامها ارتبك، وسحب مغنى الربابة النغم فى طريق غير الطريق. سكتت واكتفت بالسمع.

كاد الحبل يفلت من يدها فارتجفت، وتشبثت يسراها بخشب الشبّاك. كان الصاوى يشد السلّة ويحييها:

- مساء الفل يا ست الناظرة.

عرفت صوته، فاطمأنت يدها للحبل:

- طماطم يا صاوى، كيلو للسلطة.

سرحت أفكارها مع الشريط مرة أخرى حتى أحست بثقل السلّة، فسحبتها بالحبل، وشكرت الصاوى:

- تعيش يا حاج.

ابن حلال؛ ما زال يراعى أصول العِشْرة والجوار، يترك زبائنه ويناولها ما تريد. أولاده لا يعاملونها مثله، يتجاهلون السلة كأنهم لا يرون ولا يسمعون، وإذا ألحت عليهم بالنداء صاحوا بأصوات خشنة كارهة دون أن ينظروا فوق:

- انزلى، خذى ما تريدين بنفسك.

لعنة الله على الخَلَف، الأبناء لا يشبهون الآباء فى شىء، ولا البنات يشبهن الأمهات. ترى لو كانت عملتها وتزوجت، ومشت فى نفس الطريق، هل كانت تضمن لنفسها حظا أحسن.

وهى تستدير أشاحت عن كل الوجوه المعلقة على الحائط. أقارب لا تعرف أغلبهم؛ شوارب وطواق وعصى بمقابض مقوسة، رجال فى عباءات وآخرون ببدل وكرافتات، بعضهم بالنظّارات وساعات الجيب ذات السلاسل.

فى الوسط صورة عائلية كبيرة بإطار مذهب، فى ركن الإطار صورة أصغر لوليم يوم زفافه على المرحومة نادية؛ أم الأولاد.

طلبت من الرب الرحمة للأموات وتناست الأحياء. وقف وليم فى حلقها دون غيره، فلعنته بصوت مسموع:

- يلعن صباحك ومساك.

مشغول بنفسه وأولاده. آخر مرة زارها كان يبحث عن مسكن لآخر أبنائه حنا. وقتها خمنت ما فى نفسه، وقطعت عليه طريق الكلام:

- لا أرتاح إلا بالسكن وحدى، طول عمرى وحدى، مقطوعة من الشجرة، الآن تعودت.

وصلته الرسالة، فشرب الشاى وانصرف دون أن يفتح الموضوع. هى لم تكتف بذلك، نخسته بالكلام:

- الأهل يزورون موتاهم، وأنا أختك؛ البطن التى ولدتنى ولدتك، زُرْنى مرّة واحدة يا وليم، مرّة بلا غرض.

رغم انشغاله بنفسه يصعب عليها حاله. زارها مرات قبل ذلك، وجلس يلعن الدنيا والأولاد والغلاء والمشاغل التى تجعل الناس ينسون الواجب.

بعد تلك المرة انقطعت رجله عن بيتها، حتى التليفون سكت ولم يرن إلا يوم عُرْس حنا:

- الليلة يا طنط.

- الليلة ؟!.. جميل أنك تذكرتنى، وفى آخر لحظة.

ثم كحّت وكلمته من خلف منديل:

- مبروك يا حنا، لكننى مريضة؛ انفلونزا طحنت عظامى.

- وحياتى يا عمتى، ضرورى.

ترددت كثيرا فى تلك الليلة. أخرجت كل ملابسها السواريه ولم تعجبها، لم تعجبها أيضا الدعوة المتأخرة، وزاد عليها أنها كحّت وعطست بجد، كأن كلامها نقل لها العدوى.

لبست وخلعت، ثم بكت من العناد. لعنت وليم الجالس فى الصورة القديمة بشورت وحمالة وقُصّة شعر، وهى خلفه بضفيرة طويلة وابتسامة تنتظر ومضة الفلاش. فى الآخر لبست، أدت الواجب فى الكنيسة ورجعت.

زارت وليم بعدها مرة واحدة، وكان ذلك بعد الزلزال.

تشرّخت جدران البيت، ودبت فيه رِجْل صاحبه بسيونى ومعه موظفون يتأبطون الملفات ويعاينون الشروخ.

احتاطت لنفسها وزارت وليم. كانت زوجته أوسة راقدة بالجلطة التى شلت ساقها اليسرى. شكت أوسة:

- لو كان أحد الأولاد أفلح ودخل الطب لنفعنى الآن.

ثم رسمت الصليب على وسادتها وشكرت:

- نحمده، لو كانت الجلطة فى الشق الأيمن لشلّت لسانى.

حملت كوكب البنت الصغيرة الباكية فى لفّتها المبلولة، قبلّتها وجلست مكانها على الكرسى:

- بنت من؟

- المحروس حنا.

- ربنا يحرسه، كبر وصار له خلف.

- كبر وحمل الهم.

وليم مشغول: نظارة وشبشب وبيجامة بزرار وحيد، من غرفة إلى غرفة، ومن المطبخ إلى الحمام. عاتبته:

- مشغول عنى يا وليم كأننا مع بعض كل يوم.

جفّف يديه، ثم قبّل رأسها وجلس:

- فى خاطرى كل لحظة.

- لو فى خاطرك اسأل.

- اعذريني، المشاغل كثيرة.

- حنا أو غيره من الأولاد يسأل.

جاوبتها أوسة:

- رقدْتُ بين الحياة والموت ولم يسأل عنى أحد، ربنا يساعد الجميع.

وقال وليم:

- حتى حنا لا أراه إلا نادرا، ننام فى بيت واحد ولا أراه، شُغْل فى الصبح والليل هو وامرأته. ربما أصادفه مرة فى الأسبوع" :سعيدة يا بابا، سعيدة يا حنا".

ضحك وحسدها:

- المعاش نعمة.

لحست أوسة شفتيها، وعقدت خيط الكلام من آخره:

- كل حىّ مشغول بحاله.

أحست كوكب بالضجر:

- البنت مبلولة.

تناول وليم البنت، حملها إلى السرير الصغير وغيّر اللفة. راقبته أوسة حتى انتهى وقالت له:

- لفتك منكوشة، لو تركتها لكوكب كانت عملتها أحسن.

لم يعجبها الكلام:

- كيف أعرف؛ لا حملت ولا ولدت، ولا اشتغلت دادة لأولاد غيرى.

ثم بلعت ريقها، وقالت لوليم:

- بيتنا سيقع، الزلزال شرخه، وبسيونى حصل على قرار بإزالته.

- أحسن لك؛ ستعطيك المحافظة شقة جديدة، البيت مخلّع منذ زمن.

سد عليها باب الكلام، ورد لها موقفها القديم أيام زواج حنا، واحدة بواحدة. شربت الشاى ونزلت. ودعتها أوسة من فوق السرير:

- مع السلامة يا ست الناظرة.

تعثرت خطواتها فى الكليم الصعيدى العتيق، وعند الباب قالت لوليم:

- إذا جئت لزيارتى ولم تجد البيت فى مكانه؛ ابحث عنى فى خيام الإيواء، أو فى مقابر الصدقة.

غفا الجدّ عبد القوى وهو راقد على بطنه، يسند ذقنه بيد، ويقبض بالأخرى على عامود السرير النحاسى، ويتأمل وجهه فى إحدى مراياه المستديرة المطوقة بالمعدن الأصفر.

كان برد طوبة يصفر فى عظامه وهو يتذكر ليلته الأولى على هذا السرير؛ ناموسية، وملاءة خضراء مطرزة بورود حمراء وسنابل، وعلى الطاولة أطباق وإبريق من البللور؛ شراب ورد وحمام وبقلاوة باللوز.

الله يرحمها؛ الغالية.

شد العقْد وهو يلاعبها فانقطع الخيط وانفرطت حباته. حكمت عليه ألا يلمسها إلا بعد أن يجمع الحبات ويلْضمها، وحلفت برأس أبيها:

- وراس نديم أفندى، الغـــالى عندك وعندى؛ لا تلامس يدك يدى، ولا تقترب من خدى، إلا والحَبّ ملموم، وفى خيطه ملضوم. وإن خالفت وعدى؛ أشكوك لنديم أفندى، الغالى عندك وعندى.

جمع ولضم، لكنها فاجأته وشدّت طرف الخيط من يده قبل الرباط فانفرط العقد مرة أخرى. كرّرت عليه القسم ضاحكة:

- وحياة نديم أفندى...

مع آذان المغرب خطف النوم عينيه. ظل طوال غفوته يجمع حبات العقد ويحصيها" : ناقصة". يجمع ويعيد العد" : ناقصة". رن الجرس وهو يمد يده

ليلتقط الحبة الاخيرة ، قام وفى قلبه حسرة.

- آلو..

●●●

انقطع الخط.

طوال النهار يرن ويسكت. هى البنت بالتأكيد، تضع السماعة حين تسمع صوته. سأل نفسه" :هل تكرهنى" ؟.

●●●

فى الصالة رائحة ملوخية، وضوء يتسلل عبر الشرخ الطويل النافذ إلى شقة كوكب، حدّث نفسه" :ينفع؛ نطل منه على بعضنا".

زمان كانت لا ترد حتى على التحية.

- صباح الخير يا ست الناظرة.

تدير الآنسة وجهها، وتلتصق بالجدار حتى يطلع أو ينزل. أيامها كانت خطاه أقوى والسلالم أمتن، يمر بسرعة. الآن يتشبث بحديد الترابزين، ويتحسس خطواته حتى لا يتعثّر فى الحواف المهشمة.

قدره أن تنهدم البيوت على رأسه. دمعت عينه على الغالى ابن الغالية؛ مصطفى. يعرف أن لا حيلة فى الموت، لكنه عاتبه بصوت مسموع:

- لو كنت موجودا يا ابن الغالية لأعفيتني من هذا الحمل الثقيل.

ضغط زرّ الكهرباء، وظل يحرك اللمبة الفلورسنت حتى نطق الضوء. فى الصورة عريس وعروس، باقة ورد وإطار بلون البن المحروق. مسح الزجاج وحاول أن يستنطق العينين نظرة، لكن الدانات انفجرت فى رأسه" :بوم.. بوم..".

كان فى السويس، حاول أن يقنع ابنه وزوجته بالهجرة من المدينة

المحكومة بالظلام والخطر. يرحمهما الله، ماتا تحت الأنقاض وعاد هو بالحفيد الباكى على صدره. حتى الآن ما زال يحسّ ثقل الحمل.

●●●

رن الجرس؛ التليفون، لا بل الباب. فتح ونهر حفيده:

ـ ستحرق الجرس.

معه صاحبه شعبان، وحقيبة كبيرة، وأكياس فيها علب بلوبيف وسردين وسكر ومكرونة وأرز؛ احتياطات لمواجهة المجهول.

راقبهما الجدّ وهما يفرغان الأكياس ويتأهبان لتجهيز الحقيبة للسفر. مصْمَص شفتيه وقال لشعبان:

ـ تعجبك أفعال صاحبك؟

ـ فرصة، دعه يجرّب حظه.

ـ ولماذا يا بنى؟.. عصفور فى اليد أحسن.

نط نصر مطاردا العصفور الوهمى فى فضاء الغرفة:

ـ هش.. هش.

خاف الجد، ورفرفت يداه حول وجهه:

ـ النحلة؟

ـ لا، عصفور الأوهام يا جدى.

لمس نصر أوتار السمسمية المعلقة على الحائط؛ خمسة أوتار ارتخت وتلوّتْ مثل الأفاعى. عَزَفَ بلا صوت وغنى لجده بصوت أوبرالى:

ـ عصفور الأوهام.. عصفور الأوهام..

ضحك الجدّ عبد القوى. كان لا يزال خائفا، لكنه ضحك وغمز لشعبان:

ـ فهّمه أنت؛ إذا مت وهو مسافر سيضع بسيونى يده على الشقة، يريد

أن يهدم البيت، ويبيع الأرض بمئات الآلاف.

دعا شعبان للجد بطول العمر وسكت، لكن نصر تصدى له:

- البيت خلاص يا جدى، سيهدمه سيهدمه.

- قبل الزلزال حاول، قال: أعطى كل واحد سبعة آلاف، أنا رفضت، وكوكب أيضا رفضت. البيت فى الأصل بيت أبيها، وبسيونى اشتراه بتراب الفلوس.

أعاد الكلام على نفسه، وقاوم بإصرار:

- سبعة آلاف، قلت لا.

- خسارة؛ الآن لن يدفع مليما، ففى جيبه قرار بالإزالة.

رأى شعبان شوارب الفأر ترتعش على حافة الشرخ الممتد بطول الجدار، فضحك وغير طريق الكلام:

- فأر.

- من؟

- ها هو؛ فأر داخل الشرخ.

طارد الجدّ الفأر بعصاه الأبنوس المقوسة، لكنه هرب إلى شقة كوكب.

تعجب شعبان لنفاذ العصا فى الشرخ:

- من زلزال أكتوبر؟

- أكتوبر هزة وانتهت، توابعه كانت أصعب، كشفت المستور.

سمع آذان المغرب، فاستغفر الله:

- العصر راح.

لبس الجاكت الأسود فوق الجلباب الكستور، وتلفع بقماشة قطنية بيضاء. وقبل أن يخرج، أشار إلى الشرخ النافذ، وقاوم:

- شيكارة أسمنت ترممه.

وتحدّى نصر:

- ستسمع عنى فى غربتك، وستعرف من يضحك فى النهاية؛ أنا أم بسيونى.

●●●

يتعجب نصر من عناد الجد. يشفق عليه لكنه لا يستطيع تحمُّل ثرثرته الطويلة، يضجره الكلام المعاد.

يعرف أنه يدرك خطورة الموقف؛ الطعن فى قرار الإزالة مجرد كسب للوقت، ولو أفلح فى تعطيل قرار الطرد فلن يمنع سقوط البيت، الانهيار. المسألة واضحة، لا يمكن أن يلتبس فهمها على مدير عام شئون الموظفين بوزارة الصحة سابقا. يعرف لكنه يعاند، يعيد الكلام ثم يدق الأرض بعصاه ويهتف:

- إما أنا، وإما بسيونى.

عناد، أو ربما قلة حيلة.

- ماذا سأخْسَر.

يتعجب نصر من أحوال جده، ويشكو لصاحبه:

- الآن يعرض علىّ ما سبق أن رفضه زمان، يلحّ ويربك أفكارى، زهقت.

قبل أربع سنوات رفض عبد القوى فكرة أن يتزوج حفيده ويقيم معه فى الشقة، وقتها كان نصر يفكّر فى سهام؛ حماس بداية العلاقة، لكن الجدّ رفض وهتف بعناد:

- هنا لا، سنة بعد سنة أُصبح غريبا فى بيتى بين امرأتك وأولادك.

ظل الجدّ يثرثر فى الموضوع حتى بعد أن انصرف نصر عن الفكرة، كان

يعيد الكلام ويزيده ليجدد رفضه. وحين يضجر نصر من الكلام المعاد يلاطفه الجد، يسعل ويبرر موقفه:

- افهمنى؛ أديت واجبى نحوك، والآن أريد أن أعيش حياتى.

حتى الآن لا يحب نصر الطريقة التى تحدث بها جده، لكنه يستحسن النتيجة، ويقول لنفسه: لو وافق لصارت ورطة.

يحيّره الجد. رفض أيضا أن يبيع السرير النحاسى ليجهّز أوراقه ويدفع عمولة السفر، نفر منه كأنه حاول أن يخطف عينه.

- الآن يساوى ألفين يا جدى.

أسند رأسه على عامود السرير، وبكى بلا دموع مثل طفل:

- اسكتْ، سرير الغالية.

بعدها مرض، أو ربما تمارض، لزم السرير أياما كأنه يحرسه. يسعل ويتوجع ويطارده بنظرات متوسلة، وحين يطول الصمت بينهما يعود للموضوع:

- إياك أن تغافلنى وتبيعه من خلف ظهرى.

كأنه يحب السرير أكثر منه، أو ربما كانت حيلة ليمنعه من السفر. عموما تصرف نصر، استدان ودفع العمولة. ساعات ويسافر، ويترك الجدّ وحيدا بين الشروخ.

●●●

نزل الجدّ عبد القوى درجتين، ثم استدار وطلع، طرق باب كوكب:

- كأن الولد زعلان منى.

- ربما زعلان عليك.

- هو أمانة عندى، قطعة اللحم الحى الوحيدة التى خرجت بها من بين

الأنقاض. الغربة صعبة عليه، ولا أريد أن يلومنى أبوه فى قبره.

ـ كلنا غرباء، ربنا يحفظ غربتنا فى هذا العمر من كل سوء.

سعل واحتقن وجهه، فلمست كوكب طرف القطن الأبيض وحذّرته:

ـ البرد شديد، وهذا لا يدفىء صدرك.

شدّ كمّ الفانلّة من تحت الجلباب، وقال لها:

ـ صوف، وتحتها كلسون طويل، صوف أيضا.

ـ ادخل حتى تهدأ.

كل مرة يترك بابه مفتوحا علامة على التعجّل، وتترك بابها مواربا دليلا على البراءة، هذه المرة أغلقت الباب:

ـ قليل من النبيذ ينفع فى البرد.

ـ لا؛ حرام، عندنا حرام.

أدركت الموقف فانكسفت. تاهت نظراتها بين الصور المعلقة وسط شروخ الحائط، وأبعدت الزجاجة واعتذرت:

ـ اليوم عيد الشهيدة دميانة، قتلها عسكر الرومان ومعها أربعين عذراء رفضن الكفر والدنس، أحييت ذكراها برشفة، مجرد رشفة. كنت أتمنى أن أزور ديرها فى بلقاس، لها دير وكنيسة كبيرة هناك، أما العذارى فلهن فى كل بلد مزار يسميه الناس ضريح الأربعين.

لم يجادلها عبد القوى، كان يعرف أن الأربعين هم دراويش الولى الشاذلى الذين هاجروا معه من تونس إلى مصر. طأطأ رأسه وتمتم:

ـ رضى الله عن الجميع.

على طرف الطاولة طماطم وخيار وخبز، وفى وسطها حقيبة قديمة وصور وكراريس. تعجّب:

- رجعت للشغل؟!

- كيف أرجع بعد المعاش، فقط أسلى نفسى بدفاترى القديمة. أيام العمل كنت أحتفظ بدفاتر وصور بعض طلابى، أولاد وبنات عباقرة، أصعب المسائل الرياضية يحلّونها فى ثانية. توقعت أن يخرج من بينهم مشاهير، يمكن أن ينفعنى أحدهم فى يوم من الأيام. الآن أبحث عن أسمائهم فى الجرائد، لم أصادف إلا اثنين.

- والباقون؟

- ربما سافروا.

- ياه؛ الكل يسافرون.

- الأول تاجر سيارات، اسمه وإعلاناته كل يوم.

- والثانى؟

- رأيت صورته خلف القضبان، كبر وتغيّر شكله، لحية وطرحة بيضاء، عرفته من اسمه، كانت قضية كبيرة، أظنهم أعدموه.

تشاغل عن الكلام المحرج بتأمل الشروخ، ثم طأطأ رأسه وانصرف.

●●●

رغم الشيخوخة وانشغال البال لا يزال الجدّ عبد القوى يتذكر تفاصيل أيامه، يدحرج الكرة الضخمة أمامه، ويتعثّر فى خيوطها.

زمان كان كل شىء محسوبا ومفهوما، حتى الأحزان استطاع أن يضعها فى سياق مفهوم، وأن يستخلص منها حكمة تساعده على التماسك. الآن كلما تقدم خطوة انفرطت الكرة، وتشابكت الخيوط حول أقدامه.

يتخبط فى عتمة السلم، يتعثر ويسعل وهو يحاول أن يمسك طرف الخيط. فى الخيط الأزرق ذكريات كثيرة؛ عفريتة ميكانيكى، وعلب سجائر

بحّارى، وخاتم من الفيروز اشتراه من الخواجة عدلى زمان. ضاع فص الفيروز يوم السويس، وما زالت الحلقة الفضية تطوق إصبعه.

يتوقف ليلتقط أنفاسه فى عتمة السلم النازل، يتكئ على عصاه ويتحسس موضع الأزرق الضائع فى الخاتم القديم.

ebooks4arabs.blogspot.com

يقود الراعى خرافه عبر الممر الصعب أمام سرير كوكب، ظهيرة دائمة، ونبع بعيد. نظرة شاردة. يد تلامس الصخرة النافرة، وأخرى ترفرف فوق رؤوس القطيع.

تأمّلت كوكب المشهد، وهى جالسة على حافة السرير تطوى الملابس المغسولة. حاولت أن تثبت عينيها فى عيني الراعى الصالح، لكن نظرته الشاردة كانت تفلت منها.

تغيّرت الألوان واصفرّ قماش اللوحة، امتدت بقعة كبيرة ما بين اليد المرفرفة فوق الخراف وبين النبع. من أربعين سنة كان الأزرق يترقرق فى نبع الحياة تحت وهج الشمس، الآن زحفت عليه الصفرة.

من أربعين سنة رسمها يوسف وأهداها إليها.

وجه نحيل شاحب بنظارة وسيجارة، ونفس حائرة بين الدين والفن والحياة. يرسم ويحدثها عن قديسين يزورونه فى أحلامه، ورؤى لا يفهم بشاراتها إلا بعد فوات الأوان.

هى جالسة معه فى غرفة الرسم، تسمع، وتتأمل عنقه الطويل المائل. يده النحيلة تعلو وتهبط كأنه ينفض الغبار عن لوحة أزلية، فتنبثق الخطوط والأشكال والألوان بلمسات الفرشاة.

- برافو يا أستاذ يوسف.

يرنّ الجرس فيفترقان، هو إلى حصته وهى إلى حصتها.

مدرّس شاب فى مدرسة بنات، تشاكسه الطالبات، ولا يجد راحته إلا فى غرفة الرسم. يلوّن، ويحلم بشقة واسعة على البحر، لو فى الإسكندرية أحسن، بعيدا عن إخوته الأربعة، يملؤها بالقماش والألوان ويرسم كما يشاء.

- برافو يا أستاذ يوسف.

أسرَته كلمتُها فأهداها اللوحة. كان يترقبها ليريها آخر لمساته، ويسمع منها الكلمة.

- برافو.

كلمة منها وكلمة منه، ربطها الكلام إلى جواره فى حجرة الرسم. انتظرت أياما وشهورا، وهو قلق شارد، يطوى لوحة ويفرد أخرى، ويحدثها عن لوحة تداعب خياله، تقف فيها العذراء خلف مشربية عتيقة، ويوسف النجار إلى جوارها فى سروال داخلى قصير، وهو يحرك مروحة من ريش البط حول وجه الطفل ذى الهالة النورانية.

- اسكت يا يوسف؛ حرام.

ينفك لسانه أمامها أحيانا، لكنه أمام الآخرين قليل الكلام. أبو بكر مدرس العربى يسميه الملاك الأخرس. كتب له يوسف لوحات مدرسية من آيات القرآن وأبيات الشعر، بهره الخط، فمال برأسه وصفّر:

- صحيح مصر ولاّدة.

وكان يقول لها:

- أنا ويوسف أهم اثنين فى المدرسة، الأدب والفن مرآة الحضارة.

ويقول له:

ـ فنان مثلك يلزمه استقرار، لو حصل تحقق المجد.

يقولها، ويغمز بعينه لكوكب كأنه فاهم.

لا هى كانت فاهمة ولا أبو بكر. ذات يوم جاء خطاب من المديرية بنقل يوسف إلى الاسكندرية، عرفت الخبر منه، انتظرت أن يضيف شيئا لكنه لم يزد. انخرس لسانها، ووقعت إبرة التريكو من يدها.

كانت تنسج له كوفية من الصوف، حتى الآن لم تتمها. من أربعين سنة وهى داخل كيس بلاستيك، صوف أحمر وإبرتان ونسيج لم يكتمل.

هو كان فرحا، أخلى طرفه من المدرسة بسرعة وطار إلى الاسكندرية: باى باى.

هى طارت إلى غرفتها، احتضنت عروس طفولتها القطنية الخضراء وبكت. لم يحس بها أحد.

زمان، كانت تخص كوكب حجرة تطل على السلالم، الحجرة الصغيرة الغريبة. شباك عال بضلفة واحدة وقضبان حديدية، تسمع منه خطى الأب الهابطة والصاعدة، فتسرع للقائه خلف باب الشقة. لا تفتح إلا بعد أن تسمع دوران المفتاح فى الكالون، تسبق التكة الأخيرة وتفتح الترباس:

- بابا عدلى...

علمتها أمها الصعيدية الحذر والترقب الهادىء خلف الباب. حكت لها عن حيل الثعالب التى تدعى صداقة أهل الدار، وعن البنت الذكية التى تغلب بحذرها مكر الثعلب الشرير.

تخاف وتنكمش فى حجر ماما أنجيل، وهى تصغى لصوت الثعلب الذى يخبر البنت أنه عمها القادم من الصعيد، ثم تضحك مع فرار الثعلب بعد انكشاف حيلته. تضحك وتتقلب فى حِجْر ماما، ويحملها الضحك إلى نوم هادىء طويل.

تقمّصت كوكب كل مشاعر الخوف والقلق والحيرة، وأعادت تمثيل الحكاية ببراعة فى ذلك اليوم البعيد، حين دق الفتى الذى أصبح اسمه صنّارة باب الشقة.

عصر صيف؛ الأم نائمة ووليم الرضيع فى حضنها، وكوكب تلاعب نفسها بعروس، صنعتها ماما أنجيل من بقايا فستانها الأخير.

سمعت حفيف الخطى الغريبة على السلم فخمّنت الخطر، احتضنت عروسها وتسحّبت على أطراف أصابعها، عضت شفتيها بحذر، ووقفت خلف الباب تترقب الدقات:

- من ؟

- أنا.

لم يكن قد استقر على اسم ليخبرها به.

- هل أنت عمى الساكن فى أسيوط؟

- لا.

- إذن، أنت صاحب بابا عدلى.

تردد، وكذب:

- نعم؛ صاحبه.

صوته غريب؛ أجوف وبطىء وفيه أخلاط من ضحك وبكاء كأنه يأتى من عمْق أبعد. خافت وقالت لنفسها: الكذّاب؛ هو الثعلب لا غيره.

سألته:

- هل تعرف اسمى؟

- كوكه، الآنسة كوكه.

ارتعدت: هكذا تنطق الثعالب ذات الحلوق الواسعة أسماء البنات الصغيرات.

رسمت علامة الصليب على صدر عروستها، وكلمته بلسانها:

- بابا عدلى حدثنى عنك كثيرا، حدثنى عن ذيلك الطويل الناعم.

- هوه.. هوه.. هوه هووه..

ضحكاته جوفاء بطيئة الإيقاع، أكدت للبنت مخاوفها: هكذا تضحك

الثعالب الشريرة. ركعت على ركبتيها، وخادعته بصوت ناعم:

- أرنى ذيلك، صاحب بابا غدلى له ذيل جميل مثل الثعالب، لابد أن أراه من تحت عقب الباب لأطمئن.

ركع خلف الباب الموصد، وحايلها:

- ليس لى ذيل.

- إذن، أرنى أى شىء من جسمك؛ شعرك، أذنك، مخالبك، أى شىء.

طارد ريشة يطيرها النسيم فى فناء السلم، وحركها من تحت الباب. لمستها بحذر:

- ريشة!

- نعم، ريشة.

- هل أنت طائر؟

- نعم، نعم طائر.

- الطيور تغنى دائما. لو كنت طائرا بحق، أسمعنى غناءك.

ألصق شفتيه بشق الباب، ثم نكش الأرض برجليه ومطّ رقبته وغنّى:

- كرولم.. كرولم..

- هىء هىء.. هىء..

فاجأتها أمها وقد تخلّت عن حذرها. كانت راكعة تضحك، وتخبط جبينها بخشب الباب. فاجأتها فخجلت من غفلتها، بكت بحرارة، ولفت ذراعيها حول ساقيها:

- الثعلب يا ماما أنجيل.

بالنسبة للأم لم تكن المسألة مخيفة، فمفتاح الشقة فى حمالة صدرها. معها واحد والآخر مع الخواجة عدلى، والباب مغلق دائما، ليس للبنت سوى تَكَّة الرفّاص.

لم يكن الأمر مخيفا لكنه بدا مزعجا، فلم تر الأم هذا الفتى من قبل، نهرته:

- من أنت؟

حتى ذلك الوقت لم يكن له اسم ليخبرها به، تفادى السؤال:

- أرسلنى الخواجة بهذه الأشياء.

لما رأت كوكب وجهه خافت بجد. كانت فى ذلك الحين فى الرابعة، وهو أكبر بتسع سنوات. طفلة، وفتى بزغب شارب وصوت أجش وسحنة غريبة. فارق صغير فى عدد السنين، لكنه كان كافيا فى تلك المرحلة ليصنع هوة فاصلة وخوفا كبيرا. كان يمكن أن يكون بالنسبة لها ثعلبا حقيقيا، ربما بقى كذلك حتى الآن. أحيانا يقتحم أحلامها بوجه ثعلب، لكن بريش ذى ألوان مثل طيور الجنة التى تتحدث عنها ماما أنجيل.

كانت الطفلة ذات الأعوام الأربعة لا تعرف إلا القليل من الأسماء؛ بابا عدلى، ماما أنجيل، وليم النونو، كوكب. أما الفتى نو الشارب المزغب فكان بلا اسم، كان يحاول أن يتذكر، ربما لا يزال يحاول.

يناديه الخواجة عدلى بأى اسم يخطر على باله، وهو يستجيب. ربما كانت استجابته لنبرة فى ياء النداء، أو لصوت ما بين الحروف، حركة أو سكتة، صوت يحس إنه يخصه.

لم يعرف عدلى ما جرى إلا عندما عاد إلى البيت فى الليل. سيطرت الحكاية على سمر الأسرة، كانت الأم تضحك، ووليم النونو يبحث عن حلمة الحليب فى صدرها ثم يرفس ضاحكا، وكوكب تعيد تمثيل الحكاية مع تحريف بسيط فى نهايتها:

- ولما تأكدتُ أنه الثعلب صرخت، وناديت ماما أنجيل.

يواصلون الضحك رغم العتمة التى فرضتها صفارات الإنذار، وأزيز طائرات الألمان. يضحكون، ويفكر عدلى بين ضحكة وأخرى فى الصيت الكبير للثعالب.

هو نفسه لم ير ثعلبا حقيقيا فى حياته، وربما لم يره أيضا أولئك الذين يتحدثون كثيرا عن تلك الحيوانات؛ التى تنفخ بطونها، وتنفث عفنَ الموت حولها لتخدع فرائسها.

أكثرهم لم يروا، لكن وجود الثعالب كان حقيقة ثابتة لا تحتاج إلى برهان، كانت صورها فى الصحف، وحكاياتها فى الكتب المدرسية، وأناشيدها على ألسنة الأطفال فى الحوارى.

أجلس بابا عدلى الصغيرة على ركبته، هدهدها وهو يلقّنها النشيد المشهور: برز الثعلب يوما.. فى ثياب الواعظينا. أسندت خدها إلى صدره ونامت وهى تردد خلفه السطر الأخير من النشيد: مخطئ من ظن يوما.. أن للثعلب دينا.

●●●

اختفى الفتى الذى لا اسم له يومين، وظهر فى الثالث أمام الدكان، كان غاضبا ومرتبكا. راقبه الخواجة عدلى وهو جالس فى دكانه، ينفخ ضجرا من حر بؤونة، ويطارد ذبابة بذيل حيوان. نشّ، وراقب الفتى وهو يتمشى بخطى ضيقة أمام الدكان ويتلصص عليه بنظرات جانبيه. لوّح له بالمنشة:

- يا...

استجاب الفتى للصوت الذى يخصه، ربما كان ينتظر النداء بلهفة. طأطأ رأسه، ومسح صدره بيده متلمسا الزرار الأخير فى طوق الجلباب.

- أين كنت؟!

لم يكن هناك ما يجبره على الحضور يوميا للخواجه عدلى. هو يسعى وراء رزقه من دكان إلى دكان فى شوارع العباسية، وحين يجد لقمته ينسى العمل، يعامل سادته كأصدقاء أو ينساهم تماما، يتمدد تحت شجرة ويحلم نائما أو مستيقظا.

- لن أعمل معك بعد الآن يا خواجة، ابحث عن غيرى ليكنس لك الدكان، ويرشّ الماء.

- لماذا؟

- أنت تعرف يا خواجة، لقد أهنتني كثيرا، أهنتني بجد حين أخبرت الناس أن اسمى ثعلب، لم تحفظ غيبتى ولم تراع خدمتى لك.

ضحك الخواجة عدلى وهو ينشّ الذبابة التى تحوم حول وجه الفتى ويلسع جلده بأطراف الشعر، لكن الفتى لم يستجب للدعابة، كشّر وواجهه:

- الآنسة كوكه عاملتنى كثعلب، أنت حدثتها عنى بسوء، أليس كذلك؟.. الصغار أيضا يعيّرونني بهذا الاسم، اسمعهم يغنون فى الشوارع: الثعلب فات فات. أعتقد أنهم يقصدوننى.

ضحك عدلى وفكّر فى الأمر، فكر وشطب الفكرة فى لحظة؛ لا يمكن أن يصلح الاسم لهذا الفتى التافه، لقد أصبح كنية لرجال أقوياء، رجال من طراز آخر، وكان ثعلب الصحراء الألمانى مثالا للرجال الجديرين باللّقب.

نش عدلى الفكرة، وحايل الفتى:

- لا يصلح هذا الاسم لك، صدِّقْنى لا يصلح أبدا، لكن لابد أن هناك اسما يخصك، لماذا لا تخبرنى به؟!

جلس الفتى على عتبة الدكان، وقلّب وجهه بين كفيه فى عذاب:

- كيف لى أن أعرف يا خواجة؟

- لماذا لا تحاول أن تتذكر، حاول.

- أحاول دائما ولا أستطيع، لا أتذكر الأسماء.

- حدِّثنى عما تتذكره، لابد أنك تعرف شيئا عن نفسك، حاول.

بكى الفتى بدموع، كان عذابه حقيقيا.

الحرب هى التى حلت مشكلة الفتى؛ أعطته اسما، وأعطته أيضا الحرفة التى اشتهر بها، أو اشتهر بفشله فيها. الحرفة التى أنقذت الخواجة عدلى من شبح الفقر الذى كاد يحاصره مع كساد تجارته فى المشغولات الفضية.

كانت جثث القتلى من كبار الضباط البريطانيين، تحتاج توابيتا تميزها عن غيرها من عوام الانجليز والهنود والأفارقة. وقعَ بعض فتات صفقة التوابيت فى حجر عدلى، بتدبير مُحْكَم من أحد بلدياته من بكوات أسيوط. أجّر محلا كبيرا فى القبة الفيداوية، وحوّله إلى ورشة للنجارة. كان سعيدا بعمله الجديد، اعتبره عملا دينيا، أما أنجيل فكانت سعيدة لأسباب أخرى تتعلق بالسمن والسكر وستر البيت.

أصبح الفتى الذى لا اسم له ساعده الأيمن فى هذا العمل، بدأ مساعدا للنجارين، وانتهى مشرفا بلا سلطات، مشرفا وهميا.

كان جسمه يقشعر من أصوات المنشار والفارة والمكشط، فاشترط منذ البداية أن يقتصر عمله على دق المسامير.

يثبت الاسطوات أركان التابوت بالمسامير الغليظة، ويتولى الفتى إكمال المهمة بالمسامير الصنّارة ذات الرؤوس الصغيرة. تغور رؤوسها فى الخشب، ولا تشوه منظر التابوت.

ينزوى فى آخر الورشة بعيدا عن الأصوات التى تؤلمه، ويدق. لم يكن الأسطوات يعرفون له اسما، فأعطوه اسم المسمار الذى تخصص فى دقّه:

تعال ياصنّارة، اذهب يا صنّارة. كان أول اسم يلتصق به، وهو يصغى بفرح، ويستجيب للنداء.

أعطاه الاسم ثقة كبيرة بالنفس، جعلته قادرا على مواجهة الخواجة عدلى بطلبه الغريب:

- لن أدقّ مسمارا بعد الآن.

- لماذا يا صنّارة؟!

- أحس بالخشب يتألم من وخز المسامير، صدقنى لا أستطيع أن أتحمل ذلك، سامحنى يا خواجة.

موقف غريب لم يفهمْه عدلى. لكنه حين رأى الدموع فى عينيه أدرك أن عذابه حقيقى، نفض كتفه بالمنشة، وقال له:

- أنت حُرّ.

لوى صنّارة رقبته على صدره ولام نفسه:

- أعرف أننى لا أصلح للعمل، وأنك أيضا لا تريدنى.

- ماذا أفعل، وأنت لا تريد أن تمسك منشارا، ولا أن تدق مسمارا؟

- يمكنك أن تجد فائدة لى إن كنت تريدنى بحق.

- وماذا أفعل بك؟

مسح دمعته واقترح:

- يمكنك أن تجعلنى مشرفا.

- مشرف؟!.. وماذا ستفعل بالضبط.

- أحرس الخشب، وأخدم الأسطوات.

- تخدمهم؟!

- لن أخبرهم أنك كلفتنى بالإشراف عليهم، سأخدمهم بتواضع، وبهذا يطيعوننى بيسر.

انصرف عدلى عنه، تمشّى على الرصيف، واشترى عنبا وتينا من بائع متجول، وعندما عاد إلى الورشة كان صنّارة قد بدأ عمله الجديد بالفعل. عين نفسه مشرفا ولم ينتظر الموافقة.

ضحك عدلى، وأمره أن يذهب بالفاكهة إلى دكان الفضة:

- انتظرْنى فى الدكان يا صنّارة، وإياك أن تطلع فوق.

كان صنّارة فرحا بالاسم، لكنه ظل يعتبره اسما مؤقتا، ربما إلى الآن.

الخواجة عدلى أيضا اعتبر ورشة النجارة عملا مؤقتا، داوم على فتح دكان الفضة ساعة كل يوم. يدخن الشيشة فى مجلسه المعتاد، وخلفه على الواجهة الزجاجية كلمتان بلون الذهب: الدين المعاملة.

ساعة فى الدكان، ثم يعود إلى الورشة. يسترد كرسى الإدارة من صنّارة.

●●●

بعد الحرب أغلق عدلى الورشة. باع أدوات النجارة، ونقل ما تبقى من توابيت إلى الشقة التى يحتفظ بها خالية جنب شقته. لامته أنجيل على ذلك، ولامه بلدياته البك الأسيوطى. بخّ البك أفكاره السوداء فى وجهه بقسوة، وبشّره بغلاء يلتهم مدخراته:

- تعجلت يا عدلى، وستندم كثيرا على بيع الورشة. صحيح أن الحرب الكبرى انتهت، لكن هناك حسابات كثيرة ما زالت معلقة بين المنتصرين، وسيحرصون على تصفيتها بعيدا عن أراضيهم، والأرجح هنا.

لم يفهم عدلى الكلام، لكنه أحس بالندم فى النهاية. كانت الأسعار التى أطلقتها الحرب تواصل معاركها الخاصة من بيت لبيت، ظهرت آثارها فى الأثاث والهندام وروائح المطبخ. أدرك ببطء أن تجارة الفضة لم تعد عملا مناسبا.

ظلت صورة الأب الضاحك مجرد لقطة فى ذاكرة كوكب. فى الشريط مشاهد طويلة لأيام الحزن والآلام: حزن بابا عدلى، وأوجاع ماما أنجيل فى نوبات الكلى المتلاحقة.

للأجداد عيون ماكرة، تضيق جفونهم وهم يتأملون أمور الآخرين بحياد، ويفكّرون فى أنفسهم قبل أى شىء.

قساة، حتى حين يفرطون فى تعبيرات الحنان فإنهم لا يخلون من خداع، إنهم يستخدمون تلك العبارات فى اختبار أوتار الحس التى ترتخى فى أبدانهم.

اختبار ذاتى، يمارسونه دائما حتى فى تعاملهم مع أبسط الأشياء. يبدأ الاختبار مع أول رشفة شاى فى الصباح، يتذوقون ببطء، ثم يهزون رؤوسهم، ويجاوبون على سؤال لم يوجهه إليهم أحد:

ـ بارد، حار، السكر زيادة.

ولأنهم لا يعنون ما يقولون، فإنهم ينقلبون فجأة من حال إلى حال، كل ذلك من باب الاختبار، الاطمئنان على أنفسهم.

حتى تذكراتهم الطويلة تكون نوعا من الاختبار، يسترجعون ما حدث بانفعال تمثيلى، ليطمئنوا على قدرتهم على استعادة الأحاسيس. أحيانا تخذلهم النتيجة، فيبكون بلا دموع.

يتلقى نصر انفعالات جده بفتور أو بضجر؛ وحين يبلغ الانفعال ذروته، يغوص بنظراته فى عيون الجد، باحثا فى أعماقه عن الخطوط الفاصلة بين الصدق والخداع.

زمان كان للجد عبد القوى نظرة صافية، لا تشبه تلك التى تشرئب الآن من خلف سور عتيق تجعّدت أحجاره. وكان له فم لا يشبه ذلك الشرخ العرضى مهشّم الحواف.

فى الصورة القديمة ابتسامة هادئة تنتصب خلفها أسنان قوية، ونظرة ثابتة تتجاوز عدسة التصوير لتتأمل الذات فى مرايا آفاق بعيدة.

صورة مثالية لموظف شاب، شبكتها دبابيس فى أوراق التعيين، ودخلت ملفات وزارة الصحة دليلا على وجوده بالوزارة. حمل الملف الرمادى ثلاثة أرقام فى تنقله على الرفوف المُتربة، من المديرية إلى ديوان الوزارة إلى المعاشات، وعلى كل رف جاور أسماء وصورا مختلفة.

شاخت الصورة بطريقتها الخاصة فى صهد الملف ورطوبة الغرف، تحولت إلى خطوط سوداء متقطعة، وامتص بياض الصورة رماد الملف، أصبحت بصمة داكنة لرأس.

يحتفظ عبد القوى بنسخة من الصورة تحت زجاج البوفيه، يتوقف أمامها أحيانا وهو يملأ زمبلك المنبه، وينحنى متأملا الشبَه الهارب.

يلاحظ نصر وقفته، فينخس الذاكرة المجهدة من بعيد ويهرب، يتفادى مدار الساقية:

- أيام يا جدى.

- وأىّ أيام يا نصر، كنت شابا أصغر منك، لا دخلت دنيا، ولا حملت همًا غير همّ نفسى.

أيام الصورة كان يستعد للوظيفة.

توسط أبو الغالية نديم أفندى لتعيينه، كان بوقا انتخابيا للسعديين فى الدائرة، وله صلات ببكوات الحزب فى القاهرة. سعى لخدمة بلدياته، وسهّل ظهور وباء الكوليرا فرصة التعيين فى وزارة الصحة.

خلف موضوع الشغل كلام فى الزواج.

كان نديم أفندى وجيها ريفيا ببدلة وطربوش، بدد ميراثه القليل على موائد القمار فى القاهرة، ورهن ما تبقى من أملاكه. لم يبق له من الوجاهة إلا زىّ الأفندية وقراءة الصحف، وصلات برجال الحزب وأعيان القرى. رجال الأحزاب يعرفونه بالإسم، وعنده حكايات لا تنتهى عن أسرار الحكام.

حياته سلسلة من الرهانات: الوفد، السعديون، السياسة، التجارة، القمار. وحين عرف عبد القوى راهن عليه أيضا، رأى فيه فرصة لستر الغالية، ابنته الوحيدة، اليتيمة. كان هذا الرهان آخر دور له على طاولة الحياة.

ترفرف يد عبد القوى حول شاى الصباح، ويقول لنصر:

- آه لو كانت لها صورة.

- من يا جدى؟

- جدتك، الغالية.

يلسع الشاى لسانه، فيعيد الكوب إلى مكانه، ويمسح القطرات التى سالت على ذقنه:

- ما زال ساخنا.

أحيانا يستدرج حفيده بمدخل مبتكر. يبدأ الكلام أحيانا عن أحوال البلد ومشروعات الزواج والسفر، ثم يغافله ويربط حبال الكلام فى الساقية القديمة ويدور بالحديث المعاد: أبوك، أمك، الغالية..

●●●

كان اسمها غالية، وهو سمّاها الغالية. تزوجها بعد الوظيفة بشهرين، حملت بسرعة، وأشركته فى الحمل معها.

من أول يوم وهى خائفة من وجع الولادة، تغسل وتكنس وتطبخ، ثم تسرع إلى السرير قبل أن يعود من عمله.

- جهِّزْ لنا الأكل، الولد أتعبنى.

يغرف، ويطعمها بيده، له لقمة ولها لقمة.

- اسقنى يا عبد القوى.

يحب الدلع، يسقيها، ويسندها، ويتتبع مع يدها حركة الولد الشقى.

- مصطفى يرفسنى؛ حاسس. مصطفى يتكلم؛ سامع ؟

يضع أذنه ويسمع صوت بطنها: بك.. بك.

- ماذا يقول يا عبد القوى؟

فى فترة الحمل قامت حرب فلسطين.

كان يجلس جنبها على السرير ويقرأ لها الأخبار. قرأ لها أيضا قصيدة على الجارم فى النصر الذى تتحدث عنه الصحف:

- تألق النصر فاهتزت عوالينا

واستقبلت موكب البشرى قوافينا

غنى لنا السيف فى الأعناق أغنية

عزَّت على الأيك إيقاعا وتلحينا

لا تفهم الغالية معنى الأيك ولا العوالى ولا غيرها من الكلمات الصعبة فى القصيدة، لكنها تتركه يتمها، ثم تعيده إلى آخر كلمة فهمتْها، وتسأل:

- هل ما زالوا يحاربون بالسيوف يا عبد القوى؟!

- خيال يا غالية، خيال شعراء.

- اقرأ لنا شيئا آخر، شيئا أسهل من الخيال، لو نُكَت أحسن.

على الحائط صورة أخرى للجد وهو أكبر سنا، فيها حزن الأرمل، ووقار الموظف الكبير؛ مدير شئون الموظفين بوزارة الصحة. جالس على فوتيه من الخيزران، وهو يضع رجلا على رجل، كوعه على الركبة، وأصابعه تسند موضع الصداع فى صدغه. كانت نظراته تصد ومضة الفلاش القريب، وخلفه على جدار الاستديو غابة بأشجار ونمور.

دار لسانه فى حلقة باحثا عن طعم الفرح القديم. بلع شوقه، ثم انتقل بنظراته إلى صورة أخرى وهو يصعد منصة قاعة الاحتفالات فى الوزارة بخطوته البطيئة المحاذرة، ليتسلّم شهادة تقدير بمناسبة إحالته للمعاش، خطوته المعهودة.

●●●

لازمته تلك الخطوة البطيئة المحاذرة فى القاهرة. بدأ ذلك منذ هبط من القطار خلف بلدياته الوجيه السعدى نديم أفندى، حرص أن يتأخر عنه نصف خطوة بسلّة الهدايا الريفية، وأن يحاكى حذره فى السير على الماء.

كان عمال المحطة فى تلك الساعة يرشّون الأرصفة بالماء ليخففوا حرارة الظهيرة، ونديم أفندى يخطو بثبات وحذر، وقد مال بمنكبيه إلى الأمام، وشبك يديه خلف ظهره، وترك المنشّة تتأرجح بين أصابعه. كان يبدو من خلف بالطربوش والبذلة البنية وذيل الحصان؛ لقطة تذكارية لنزوح أفندية الأرياف العظيم إلى القاهرة. خلفه على هامش الصورة تابعه عبد القوى بالبذلة وسلّة الهدايا، وفى دخان المشهد الأمامى موظفون وعمال بزىّ الهيئة، وساعات، وبوابات مفتوحة على موقف للحناطير.

نشّ نديم أفندى، وقال لتابعه:

ـ هذه مصر يا عبد القوى؛ أم الدنيا. هنا الرأس، وهناك الأطراف

والأحشاء. هنا تسمع وترى وتنطق، وهناك تعيش حياتك كأنها يوم واحد ولون واحد، أكل وشخير.

مط عبد القوى رقبته ليتخطى بأذنيه حاجز النصف خطوة ويسمع النصيحة. تقلّبت عيناه بانتباه، وتشتّتت أفكاره بين "هنا" و"هناك"، ولما انتهى الكلام اكتفى بالشكر:

- لولا عطفك وتشجيعك، لرضيت بأى وظيفة، وفى أى بندر.

- هنا تنفع نفسك أكثر، وتخدم ناسك أكثر.

وفى الترام خلع نديم أفندى الطربوش، وصارحه:

- أنا وضعت رِجْلا هنا وتركت الأخرى هناك، ضيّعت عمرى فى خدمة الناس هناك، لكنى ما نفعت نفسى لا هنا ولا هناك.

كان نديم أفندى قد خسر كل رهاناته تقريبا، بانت له النهايات، وسكنته الظنون.

لم ينتبه عبد القوى لما سمع، لم يلاحظ تلك الفقاعة السوداء التى تتقلب فى باطن الكلام. كان مشغولا بالفرجة من الشباك، وتأمّل حركة الطلوع والنزول فى المحطات.

أول مرة فى القاهرة، ولاستلام الوظيفة مباشرة. تكفّل نديم أفندى وحده بالشوط الأول فى ديوان الموظفين، وتعهّد أن يشرف بنفسه على إنهاء الإجراءات البسيطة الباقية، وزاد فى وعده:

- لن أتركك الا ومعك مفتاح المكتب، والشقة أيضا.

استضافه معه أسبوعا فى بيت صديق أعزب سكير فى الفجالة، يتاجر فى المسابح والعقود وعصىّ الأبنوس المطعمة بالفضة والكهرمان، يلتقط القطع النادرة من خان الخليلى ويدور بها على بيوت زبائنه، هوانم وباشوات وبكوات من كل الأحزاب.

يلعب الصديقان البوكر أغلب الليل، ويثرثران فى أسرار الحكام، وينهض نديم أفندى مع طلوع الشمس، ليواصل سعيه مع عبد القوى فى الدواوين.

أنهى فى خمسة أيام إجراءات القومسيون الطبى، وتابع صدور القرار واستلام العمل. وفى اليومين الأخيرين أجَّر له شقة بالعباسية، واشترى أدوات المطبخ ومكتبا وكنبتين وبطانيتين، ونصحه:

- هذا يكفى الآن، وبعد شهرين نفرشها للعروس؛ الاستقرار مهم.

كان الإنجاز قياسيا، لكنه كان مرهقا ومهينا أحيانا. لاحظ عبد القوى ذلك فى انتظار نديم أفندى الطويل أمام الأبواب؛ يد تنشّ، والأخرى تتحسس خطابات التوصية فى جيب البذلة.

بعد المقابلة يبتسم وهو يشير إلى التوقيع الجديد، ويقول لعبد القوى:

- لما رآنى المدير عرفنى ووقف لى بالأحضان، وقّع وخَتم دون أن يقرأ.

السكرتير غبى، لم يوضح له الاسم.

أحيانا يكون الموقف أصعب، فيطأطئ رأسه وينصحه بالصبر:

- نتحمّل قليلا، والمهم أن نحقق مصلحتنا فى النهاية.

وفى الجلسات الطويلة؛ فى الترام أو على مقاهى الحسين والأزبكية، شرح له ما لا يعرف:

- السعديون بخلاء بالخدمات، صدقنى، وربما كل السياسيين، وفى كل الأحزاب أيضا، لكل شئ ثمن. أنا عرفت الوفديين قبل السعديين، ميزة السعديين أن هذه الأيام أيامهم، وعلاقاتى بهم أحسن من غيرهم. كنا أصحابا فى الوفد، وطلعنا من الوفد أصحابا. عموما لولا وجودهم فى الحكومة لما استطعت أن أخطف لك الوظيفة بهذه السرعة.

يعرف عبد القوى أن انتشار وباء الكوليرا سهّل التعيين واختصر

الاجراءات، لكنه لا يستطيع أن ينكر أن باب القاهرة كان سيظل مجهولا بالنسبة له لولا نديم أفندى. لا يستطيع أن يجْحد كل هذا الجهد والاهتمام والمحبة، الرجل عمل كل شىء بنفسه تقريبا.

واصل الشكر، وواصل نديم أفندى التغنى بالعصفور الذهبى الذى طالته اليد:

- الوظيفة هى المستقبل.

وشرح له ما يعرفه الجميع:

- من حسن حظك أن تأتى إلى هنا والأمور على وشك الانفراج. النقراشى أخرج الانجليز من القاهرة؛ القلعة والعباسية وقصر النيل، آخرهم خرج فى مارس. الآن يعرض النقراشى قضية مصر على مجلس الامن، وقد يُجْبرهم على الجلاء عن الوادى كله، مصر والسودان.

وسأله:

- هل تعرف معنى ذلك يا عبد القوى؟

- كلها تطورات طيبة يا نديم أفندى.

- طيبة طبعا، لكن العاقل من يقرأ الأيام. معنى ما يحدث أن زمن الموظفين يبدأ الآن. ماذا سيفعل السياسيون والخطباء بعد الجلاء، وحتى الأحزاب كلها؟. بعد الجلاء تحتاج البلد إدارة، موظفين وإدارة. العاقل من يسبق الأيام ويجلس على الكرسى، المدراء حكام الزمن الجديد.

فى الرأس الضخم نصائح كثيرة، استخلصها رجل مشى فى كل الاتجاهات لكنه فقد الإيمان. نصائح متضاربة، تصنع أقدارا مختلفة لا تتشابه مساراتها ولا نهاياتها. هو اختار لعبد القوى النصائح التى رآها مناسبة له، ورسم الاتجاه:

- ابدأ بالاستقرار، الزواج نظام ونظافة واحترام، ومسئولية تربطك بالحياة. تزوّج وعجل بالخلف، وبعد أول ولد استأنف دراستك، اتركها تربّى وادرس، جامعة ابراهيم جنب سكنك، والاستقرار ينظم وقتك وبالشهادة الأكبر تكبر.

جاراه عبد القوى فى موضوع الزواج، ووضع له النقاط فوق الحروف؛ الغالية. لكنه كان يتجنب الكلام فى السياسة ويكتفى بالسماع. عنده ميل للوفد، وكان نديم أفندى سعديا صريحا، هكذا كان يبدو.

يوم إعلان فشل النقراشى فى عرض القضية المصرية على مجلس الأمن، ثار نديم أفندى على عبد القوى، وحذّره من ميوله الوفدية، ولامه شخصيا على مافعل النحاس باشا:

- سحب البساط من تحت رجلى النقراشى وهو فى موقف صعب، قال لمجلس الأمن" : أنا وكيل الأمة بالأغلبية، والنقراشى لا يملك حق الحديث باسم الشعب". هذا ما فعل حبيب قلبك؛ الباشا النحاس؛ خَوْزق البلدَ كلها ليغيظ النقراشى، ملاعيب صغار.

ثار نديم فى الظهر، لكنه غير اتجاه الكلام فى الليل:

- ربما كان النحاس يعرف من بواطن الأمور ما لا نعرف، ضرب ضربته وقلب وعاء السم قبل أن تنضج الطبخة.

وصارح عبد القوى بظنونه:

- النقراشى بحره واسع، ولا يستطيع أحد أن يخمن ما يدور فى أعماقه حتى السعديين، والنحّاس لا يختلف عنه.

وفى آخر الليل شتم الاثنين، ونصح عبد القوى:

- السياسية ألاعيب ورجالها ثعالب، وشوقى بك قالها" :مخطئ من ظن

يوما.. أن للثعلب دينا". ابعد عن السياسة تكسب، أنت الآن موظف عمومى، وضعك حساس وأمامك مسئوليات.

وعاد به لموضوع الزواج من الغالية، اتفقا على كل شىء، والدخلة بعد شهرين.

فى تلك الليلة، بدأ عبد القوى يرى الفقّاعة السوداء التى تنقلب بين جفنىْ صهره، اكتشف أن الرجل بلا إيمان وبلا سند تقريبا، وأن السياسة كانت بالنسبة له طول الوقت لعبة حياة، تسلية. كان واضحا أنه خسر كل رهاناته: بانت له النهايات وسكنته الظنون، وأصبح الشىء الوحيد الذى يشغله هو زواج الغالية.

●●●

ليلة الفرح أنفق نديم أفندى آخر جنيه معه. استضاف البلدة كلها تقريبا، ورقص رقصته الاخيرة بالعصا، وهو يسند الطربوش الأحمر بيده.

ذاب فص الأفيون تحت لسانه على مهل، وشحن أوصاله بالعزم القديم؛ عزم الحياة. دار بالعصا، وصهل راقصا وهو يتأمل وجوه ضيوفه واحدا واحدا، كأنه يستطلع النهايات.

لاحظ عبد القوى الظلَّ الأسود خلف نظرات صهره وابتساماته. لاحظ وتعجّب، لكنه لم يفهم ساعتها أن الوجيه المفلس كان يفكر على إيقاع خطواته الراقصة فى الديون والبيت المرهون، ويصغى لشخللة القروش والملاليم الباقية فى جيبه.

●●●

ساعة السفر مال عبد القوى على أذن صهره واستعطفه:

- لو وافقت أن تعيش معنا، تسعد قلبى.

همس نديم أفندى:

ـ الباقى ساعة موت وليس ساعة حياة، وأنا لا أحب أن أموت بينكما، افهمنى يا عبد القوى.

ونصحه:

ـ العمر محطات، انتبه لنفسك وللغالية أيضا.

ودّعه وودع الغالية، وسبَحَت نظراته خلف القطار طويلا. طفت الفقاعة السوداء بين جفنيه، تمددت واشتبكت بدخان القطار، ظل خيط الدخان يتمدد حتى انقطعت الرؤية.

ـ مع السلامة.

●●●

لم يشهد عبد القوى ما جرى بعد ذلك. مرّ عام تقريبا قبل أن يعرف الخبر من تليفون العمدة، وكانت أخلاط الحكايات التى سمعها بعد ذلك من نظيرة خادمة العمدة ومن آخرين شيئا مزعجا.

سمع ولام نفسه بشدة لأنه لم ينتبه لخطورة كلام صهره يوم الوداع، ولم يهتم بانقطاعه الطويل. عُذْره أنه كان يريد أن يفاجئ صهره بالحفيد على كتفه، لكن الخبر الحزين سبق:

ـ البقاء لله.

●●●

يوم وداع العروسين عاد نديم أفندى من المحطة على حمار خلف أحد التجار، وسط مجموعة من بلدياته. كانوا يثرثرون على الطريق حول قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين والحرب الوشيكة. تقاربت حمير وتباعدت فى النقاش الطويل المتشابك بين مجموعات الراكبين والسائرين، وظل هو صامتا، كان مشغولا بأفكار أخرى.

تعجَّب ناس لسكوته فى أمور يعتبرونها من اختصاصه، وسأله أحدهم:

- ما معنى كل ما يجرى يا نديم أفندى.

- معناه أن الانجليز ينوون الخروج من المنطقة، لكن بعد أن يدقوا فيها مسمار جحا. مع السلامة يا بريطانيا العظمى، وأى شئ بعدك يهون، نقدر عليه.

كان هذا آخر كلام فى السياسة سمعه الناس من الوجيه السعدى. بعده فقد الاهتمام، لم يتابع الوقائع التى توالت طوال العام التالى؛ حرب فلسطين، والإضرابات والاغتيالات المتتالية فى العاصمة؛ القاضى والحكمدار والنقراشى نفسه.

ربما لم يعرف أصلا، لم يهتم أحد أن يخبره.

حكت نظيرة خادمة العمدة أنها اعتادت أن تراه فى الشهور الاخيرة جالسا أو نائما على الكنبة فى شرفة المدخل.

بيت ريفى ببقايا سور، وحديقة لم يعد فيها إلا شجرة توت. باب البيت يرتفع عن الأرض ثلاث درجات، وأمامه شرفة مسقوفة بجذوع نخيل، يتدلى من أحدها حبل بفانوس إنجليزى تصد زجاجته المحكمة نفخات الهواء.

لاحظت نظيرة أن الناس بدأوا ينفضّون من حوله، وأنه يسهر أغلب الليالى وحده تحت الفانوس بالبدلة والطربوش.

قال ناس إنه صار قليل الكلام، لا معلومات لديه، ولا يهتم بقضاء مصلحة لأحد، وحين يلح عليه طالب خدمة ينهره بعصبية.

وقال آخرون:

- أصبح لا ينفع ولا يضر، ولا يكف عن قول" :هات".

بعد فترة أصبح وحيدا تماما فى شرفة المدخل، لا يقوم من مكانه على

الدكة الخشبية، ولا يهتم حتى بإشعال الفانوس، ربما نفد الوقود.

زارته نظيرة بدون إذن من العمدة، وتحسّرت على حاله. اكتشفت أنه لم يخلع ملابسه منذ أسابيع؛ شمت نتن حذائه قبل أن تصعد سلم الشرفة، ولاحظت بقع التراب وفضلات الطيور على البدلة والطربوش.

رغم خوفها من العمدة اعترفت له، حكت واستحلفته:

- ومقام الحسين الطاهر ما تزعل منى يا عمدة؛ آخر مرة.

بعض الحاضرين فسّروا حالة نديم أفندى بنقص الأفيون، لكن العمدة الإخوانى الهوى رد الحالة لأسباب أخرى سياسية:

- خلاص؛ النقراشى خاب وكثرت وقعاته، انكشف وجهه الحقيقى، وحل غضب الله على أتباعه.

لم يُخْف شماتته بالأفندى السعدى الذى لم يصادفْه فى المسجد ولا مرّة، لكنه أمر نظيرة أن ترسل له طعاما كل يوم، ولم ينس أن ينبهها:

- مع الخفير يا نظيرة، واحذرى أن تحلفى أمامى مرة أخرى بمقامات أهل البيت، المقامات قبور.

وقال لمن حوله:

- رغم كل شىء لا نبخل عليه بما أعطانا الله، وندعو له بالهداية، آمين.

لم تكف نظيرة عن زيارته خلسة، بحكم العشرة والخدمة القديمة فى البيت. غيرُها كانوا يزورونه أيضا، يتوقفون خلف فرجات السور المتهدم، ويكلّمونه:

- سلام عليكم، يلزمك شئ يا نديم أفندى؟؟

أصحاب الديون كانوا يدخلون بدون سلام ولا كلام، يحملون قطع الأثاث ويخرجون، ونديم أفندى على الكنبة يتقلّب وينظر صامتا. بعد فترة صار لا

يمكن لأحد أن يفرِّق بين أصحاب الديون وغيرهم، حتى نظيرة أخذت الفانوس من باب التذكار.

حين ظهر صاحب رهن البيت ظن أن نديم أفندى باع الأثاث ليسلمه البيت خاليا. لكنه فهم الموقف بعد فترة، تصرّف بهدوء وفضّل الانتظار.

كان يأتى أحيانا، يفرش شاله ويصلى تحت شجرة التوت، تتمتم شفتاه بالصلاة وعيناه ترقبان الموقف، ثم يلم شاله وينصرف بهدوء. الحقيقة لم يجرح إحساس نديم أفندى بكلمة؛ لا سلام ولا كلام، لا خير ولا شر.

الواضح أن المشهد طال كثيرا حتى أصبح مملا جدا.

أنهى نديم أفندى الملل بمشهد جديد؛ عقد الحبل المتدلى من سقف الشرفة حول رقبته، وتأرجح مشنوقا بالبدلة والطربوش والحذاء، والمنشة فى جيبه.

●●●

مات نديم أفندى والغالية فى نهايات الحمل.

كان مشهد الوداع قاسيا، رفض أهل البلدة أن يقيموا صلاة الجنازة على المنتحر، فصلّى عليه عبد القوى وصاحب رهن البيت وعربجى غريب تحت شجرة التوت فى حوش الدار، ثلاثة فقط، ثم حملته عربة الكارو إلى المقابر.

كانت الغالية خلف العربة، تجرى خطوتين وتجلس طويلا، ترش الأبواب المغلقة بالتراب، وتشتم الأهل والجيران:

- لماذا تبخلون عليه برحمة ربه؟!

فى ليالى الحَمْل الأخيرة كانت تبكى بحرقة، وعبد القوى على السجادة جنب السرير، يصلى ويستغفر، ويرجوها أن تصبر من أجل الولد المزنوق

فى بطنها:

- الموت حق على الجميع يا غالية.

- لا أبكى على موته، وإنما على وقوفه خزيانا بين يدى ربه، وكان طول عمره عزيز النفس.

ماتت الغالية بالحمى بعد أيام، وولدت مصطفى وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة.

ebooks4arabs.blogspot.com

صلّى الجدّ عبد القوى المغرب فى المسجد. صلى وحيدا جالسا بعد أن انقضت صلاة الجماعة. جدد وضوءه، وقرر أن ينتظر آذان العشاء ليصلى مع الجماعة، ربما أيضا تهدأ السماء.

كان مترددا، هل يعود إلى حفيده، أم يواصل طريقه إلى صنّارة. فضل الانتظار.

داهمه الطنين أذنيه فهز رأسه متفاديا لسعات الذاكرة، وتخبطت نظراته فى آفاق المسجد. أعمدة وسقوف عالية، وزخارف من آيات القرآن تتشابك حروفها فى إيقاع متكرر يطوّق الجدران، لا بداية ولا نهاية.

رفّت حوله أرواحُ أحباب وأصحاب رخلوا، قرأ الفاتحة وطلب لنفسه ولهم الرحمة، لم يبخل بها على عدلى.

حملت كل روح رحمتها فى منقارها ورفرفت مبتعدة، إلا روح عدلى، ظلت ترقبه بتلك النظرة الكارهة التى رآها فى عينيه فى ذلك اليوم البعيد، يوم اكتشف أنه أصبح جاره، أيام حرب القناة.

لم تكن العلاقة بينهما سهلة.

رفض عدلى بعناد أن يؤجر له الشقة الخالية حين كان البيت ملكه، رغم أنه كان فى حاجة لفلوس الإيجار. كانت له أسبابه الخاصة، وربما كان يتمسك بحلم قديم، أن يهدم البيت ويبنى مكانه فيللا من طابقين واحد

لكوكب والآخر لوليم. أهون التقديرات أن يحتفظ بالشقة الخالية لزواج الولد أو البنت.

كان عصر الأحلام قد انتهى تقريبا. زادت تكاليف الحياة وقلّت أرباحُ دكانه، لكنه راهن على فرص غامضة للثراء يمكن أن تتيحها له الحياة. لم تكن فى رأسه فكرة محددة، لكنه واصل الرهان بعناد.

رفض الإيجار، وباع بخسا بعد ذلك. كانت أسعار البيوت فى الأرض بسبب حرب بورسعيد. لا أحد يشترى ولا أحد يبيع بيتا أثناء الحروب، لكن أنجيل كانت تصرخ من آلام الكلى، واضطر عدلى أن يبيع.

باع فجأة لبسيونى تاجر الخردة. كان شابا بعينىْ صقر، يستطيع أن يقرأ الأيام، غامر واشترى، وأجّر الشقة الخالية لعبد القوى.

بدا أن جوار عبد القوى أصعب على قلب عدلى من بيع البيت، ربما اعتبره رمزا لانكسار عناده وخيبة رهاناته، وربما كانت لديه أسباب أخرى: البنت والزوجه. استقبل ظهور جاره الأرمل الشاب بتوتر وصخب، كان يفتح الباب ويصيح فى الحمّالين:

- بهدوء؛ عندى مريضة تحتاج الراحة، وخبطاتكم تزيد أوجاعها.

وعندما اشرأبّت كوكب من خلف كتفه، جرها للداخل وأغلق الباب برجْله.

تعامل عبد القوى مع الموقف بهدوء، قدّر ظروف الرجل: البيع والمرض وكساد الحرب. لم يتدخل فى حواره مع الحمالين، بل وحاول أن يتودد إليه. تجاهل كل الموضوعات التى يمكن أن تثيره، وبحث عن زاوية مشتركة توحِّد المشاعر.

انتهز فرصة نزوله وحياه:

- تشرّفت بجوارك يا خواجة.

- مرسى.

حدثه عن آخر أخبار الحرب فى بورسعيد، وبشّره:

- النصر لنا على أهل الكفر، هذا وعد الله للمؤمنين.

- طبعا يا سيدى وأى انتصار؛ مبروك عليك الشقّة.

فهم الخواجة الكلام على غير القصد، ظهر ذلك فى النبرة والنظرة.

حاول عبد القوى مرّة أخرى. مرّ عليه فى الدكان، واشترى خاتما بفص من الفيروز. حاول أن يساوم فى السعر ليفتح بابا للكلام، لكن الخواجة نفخ:

- الفيروز إيرانى من نيسابور، وشغل الفضة تركي. خاتم قديم لا يوجد له مثيل فى السوق، ومن يعرف قيمته لا يساوم فى السعر.

دفعَ عبد القوى ولبس، وقال له:

- حتى ولو كان حلقة من حديد، أشتريه من يدك بأغلى سعر يا خواجة.

اعتاد عبد القوى منه ذلك الجفاء المترفّع، وعامله بحياد ودود" : سعيدة.. سعيدة مبارك". لم يشغل نفسه به، عنده ما يكفيه، تربية مصطفى والوظيفة واستكمال دراسة الحقوق. كان منتسبا للجامعة، تشاغل عن همومه بالدراسة.

عدلى هو الذى طرق بابه قبل أن تمر ستة شهور. كان ليلا رمضانيا، وقت بين الإفطار والسحور، وعبد القوى يسمع تعليق الإذاعة على إعادة افتتاح القناة. كانت أذنه مع آخر جملة فى التعليق وهو يفتح الباب. اندهش:

- خطوة عزيزة يا خواجة.

طلب عدلى سيجارة بحّارى، واشتكى من كثرة الهموم، ومن تعب المفاصل:

- ربيع، لكن هواء برمودة يفكّك العظام، ويولّد الظنون.

كلام على الباب، ثم انسحب:

- سعيدة.

لم يقتنع عبد القوى بالكلام، شدّه من كمه:

- ماذا يشغلك يا خواجة؟

- كأن أنجيل تموت؛ من أول الليل وهى تغيب وتحضر. كلامها غريب لا أستطيع أن أفهمه، صعب كأنه وسوسة شيطان. أردت أن أطمئن أنك موجود، الجار للجار.

تكسّرت الحروف الأخيرة فى فمه، بين كل حرف وحرف نفخة، كان يقاوم البكاء.

فى الصباح لم يستطع أن يقاوم، دق الباب وبكى على كتفه:

- ماتت.

كانت كوكب على آخر درجة فى السلم الهابط فى طريقها إلى الكلية، استدارت وطلعت. رمت نفسها على ساعد أبيها، ولما لمستها أصابع عبد القوى سرى الرعب فى جسدها فارتجفت وصرخت:

- ماما أنجيل.

لم يقترب عبد القوى من صنّارة إلا يوم موت أنجيل.

له رأس عجيب فوق رقبة طويلة، صلعة تزحف من منتصف الرأس إلى جبهة ضيقة تتزاحم فيها عينان مجوفتان، تتقلص جفونهما وتزدادان اتساعا كلما تقدم به العمر. وجه بلون الخشب، معرّق بتجاعيد داكنة، مثلث مرسوم بإتقان كأنه هرم، تضيق قمته فى منبت الشعر عند منتصف الرأس، ويتسع عند القاعدة مرتكزا على فم واسع وفك سفلىّ عريض.

وجهه هادىء أغلب الوقت، لكن فكه السفلى يسقط بين لفتة ولفتة، يسقط وينطبق فجأة كأنه يتكتّم بكاء أو ضحكا، وكان ذلك يجعل صوته أجوفَ بطىء الإيقاع.

فى الأيام الأخيرة يشكو صنّارة من ثقل فكه السفلى، يتدلى وهو نائم فيفتح فمه على آخره. ينام فى الصيف تحت الأشجار فتسقط ثمارها فى حلقه. دائما يملأ نسيم الربيع حلقه بالتوت، يهز الشجرة فى الفجر ويطعمه.

ليست هذه هى المشكلة، المشكلة الحقيقية فى الحشرات والطيور. مرة باضت فى فمه عصفورة، هكذا يحكى صنّارة.

رآه عبد القوى قبلها لكنه لم يكتشفه إلا يوم موت أنجيل. صادفه مرات هائما فى الشوارع، أو نائما تحت شجرة على رصيف، ورآه كثيرا يكنس ويرش ويخدم الخواجة عدلى فى الدكان. لم يهتم به كثيرا، وتجنب الكلام

معه أغلب الأحيان. كان يضايقه سماع إيقاع صوته الأجوف، ومتابعة حركة فكه البطيئة.

لم يكن حضوره يفرض الاهتمام، تلاحظه بسهولة، وتنصرف عنه بسرعة. يمشي متخشّبا وئيدا، تكاد لا تحسّ حركته. تلاحظه مثل جماد، وتعامله بحياد، الأفضلُ أن تتفاداه. يبدو في ضوء الشمس بجلبابه الأبيض ورقبته الطويلة مثل شرخ في زجاجة النهار.

تصرّف عبد القوى هكذا دائما مع صنّارة، لكن يوم موت أنجيل، وحين تكلم صنّارة، اكتشف عبد القوى أن في فمه عصفورا.

كان عدلي قد سافر بالجثمان إلى مقابر العائلة في أسيوط، صحبه جار في العربة السوداء، وتبعه أحد أقاربه في القطار ومعه كوكب ووليم.

ساعد عبد القوى جاره في إعداد الأوراق والتصاريح بحكم وضعه كموظف ذي نفوذ في وزارة الصحة، لكنه تهرَّب من السفر الطويل. رمضان، ثم أنه أيضا أرمل يرعى طفلا لم يتجاوز السابعة، مصطفى ابن الغالية.

في الليل وجد صنّارة ينتظر في الفناء المكشوف بين الشقتين. ليل ربيع، وصنّارة جماد مسنود على الحائط، وعيناه تلمعان بنور قمر لم يكتمل.

أضاء عبد القوى نور الباب، فتخبطت نظرات صنّارة بين النورين. واضطرب في جلسته، حتى كاد ينكفيء على وجهه.

كان عبد القوى في طريقه إلى الشارع السهران، ليشترى حلوى للولد الصغير، وسحورا لنفسه، فاجأه المنظر:

- ماذا تفعل هنا؟

- أنتظر الخواجة.

أسيوط سفر طويل جدا، سفر ومأتم وواجبات، سيغيب أياما.

ـ يمكننى أن أنتظر هنا، لابد أن يجدنى فى انتظاره عندما يعود، حتى لا يظننى شامتا.

ـ وبماذا تشمت؟

ـ كانت تكرهنى، ربما عذبها الله بالمرض لأجلى، لكننى لم أكن راضيا عن ذلك، لا يمكن أن أرضى بعذاب إنسان.

ـ ولماذا تظن أنها كانت تكرهك؟

ـ هى لم تُخْف ذلك، نهرتنى وعاملتنى مثل لص، حذرت الآنسة كوكه منى، ومنعتنى أن أقترب من بابها. كانت تسمينى "الثعلب" لكننى سامحتها، صدقنى سامحتها.

وتوسل اليه:

ـ لو كنت لا تريدنى أن ابقى هنا فسأنصرف، لكن ذلك سيعذبنى، أريد أن يجدنى عندما يعود مربوطا أمام بابه ليعرف مدى حزنى.

لم يدْرِ عبد القوى ماذا يقول، لكن صنّارة حسم الموقف، وطلب منه مقشّة:

ـ سأكنس السلم والفناء، وأنام جنب الحائط. لن أزعج أحدا ولن أضيّق المكان، لن تحس بوجودى أبدا.

تحسس عبد القوى صلعة صنّارة، وطرق عظام الجمجمة ليتأكد أن داخل هذا الصندوق الخشبى المثلث شيئا. فاجأه صنّارة بصوت غريب فيه أخلاط ضحك وبكاء، ثم ارتخى جسمه وتفككت مفاصله واستلقى على الأرض.

ـ ماذا جرى لك يا صنّارة؟

ـ يحدث لى هذا دائما عندما تلمس رأسى يد، أو يلسعها نور القمر.

فى تلك الليلة اكتشفه عبد القوى.

اشترى أغراضه، ورجع بسرعة، تحايل على الولد الصغير حتى نام، وتفرّغ لصنارة. كسب مودته بطبق فول وشاى للسحور. تركه يأكل وحده ثم سحب كرسيا وجلس أمام الباب. كان نسيم الليل يغرى بالابتسام:

ـ ما اسمك؟

ـ يمكنك أن تسمينى صنّارة مثلهم، بهذا كان كان ينادينى الأسطوات، لكن لى اسم آخر حقيقى.

ـ ما هو؟

ـ ليتنى أستطيع أن أتذكر يا عم عبد القوى.

لا يستطيع عبد القوى أن يخمّن أن صنّارة يصغره بعامين. كان الرجل مثل نقطة معلقة فى فراغ، نقطة بداية ربما، أو ربما نقطة نهاية، لا تستطيع أن تخمن طول خط عمره.

انتفخ عبد القوى بأعوامه الثلاثين، وهو يتأمل خروج كلمة "عمّ" من فم القناع الخشبى المثلث:

ـ آه يا عمّ عبد القوى؛ لا يستطيع أحد أن يساعدنى، عذاب.

كانت الكلمة تعبيرا عن انكسار، أكثر مما هى تقدير لفارق فى العمر.

فى تلك الليلة، وقف القمر على صلعة صنّارة، وانتفخت الفقاعة فى دماغه، التصق بالحائط، وجاهد وهو يحاول أن يتذكر:

ـ كنت أجرى، ذلك أول ما أتذكره؛ اللطمة الأولى. لا أستطيع أن أتذكر ماقبل تلك اللطمة القوية، التى أتلفت مفصل فكى ومسحت كل الأسماء من رأسى.

كنت أجرى وهم خلفى، يتقدّمهم وجه غاضب لاهث، وهم وراءه خلفية غامضة لا أستطيع أن أتبين تفاصيلها. هل كان أبى؟.. من يدرى.

أظن أننى ارتكبت إثما استوجب كل ذلك الغضب، لكننى لا أتذكره، كنت أفرّ بعارى، أجرى أمامهم لأغادر المشهد. خفت منهم، لكن حين انفردت بنفسى خفْتُ أكثر. لا أتذكر من أين جئت ولا أين أمضيت ليلتى الأولى بعد فراقهم، ربما احتضننى جذع شجرة على مداخل البلاد، قريبا من حافة السماء. نمت

نمت، وصحوت مع طلوع الشمس على زمارة الأراجوز، فنهضت وتبعته. كان صوته ساحرا، وفى ملابسه كل الألوان، وعلى طريقه أشجار وقرود وفراشات وماء، وفى صندوقه تمثيليات وكلام. يلعب بأصابعه من خلف ستار فترقص الدمى وتغنى لى: كرولم.. كرولم. نسيت خوفى ووجعى وتبعته إلى هنا، أسلمنى إلى البعاد.

قدّم عرْضَه الأخير تحت شفق الصيف، ثم طوى الدُّمى ووضعها فى جيوبه، وطوى بيت الدمى وحمله على ظهره، ومضى ساعيا إلى مكانه الخفى.

تبعته وسط قرود كلاب نابحة، لكنه أدار رأسه على حافة العتمة وسألنى دون أن يتوقف:

ـ لماذا تتْبعُنى؟

طوى راحتيه ثم فتحهما ناثرا أصابعه فى طرق الليل المفتوحة خلفى ونهرنى:

ـ اذهب.. اذهب.. اذهب..

غالبت وجع فكى، وحاولت أن أناديه بالصوت الذى أعرفه: كرولم.. كرولم، لكنه ظل يكرر الأمر وهو يطوى أصابعه، وينثرها فى الجهات حتى أطفأ التعب صوته، وطمست العتمة ألوانا كانت تبرق فى ثوبه المرقّع. استدرتُ، كان فوقى قمر وأمامى شوارع مفتوحة على ليل.

غطّت سحابة وجه القمر، فهبت روائح الخوف على صنّارة وتدلى فكه السفلى. تعذّب وهو يحاول أن يتذكر ما قبل ذلك، ظل يفتح حلقه ويطبقه على هواء نسيان حتى نام، سقط فكه وتدلى لسانه. استطاع عبد القوى فى تلك الليلة أن يرى العصفور الذى يسكن حلقه.

غاب الخواجة عدلى خمسة أيام، ورجع فى السادس. طرد صنّارة من أمام بابه، ولام عبد القوى بعصبية:

- احترس؛ هذا الرجل مجنون، حيوان بلا ذاكرة ولا اسم، ولا يعرف لنفسه دينا ولا ملّة، يأكل من طبق سحورك، ويفطر فى الصباح من طبقى.

راقبت كوكب الحديث من فرجة الباب، ورأت صنّارة وهو يهرول هابطا الدرج. كانت تحتضن نفسها وترتعد.

عزفت كوكب بأطراف أصابعها على سن الإبرة القديمة. وخَزَت الجلد، وترقّبَت سريان الإحساس فى جسدها، لكن النغم تبدد قبل أن يصل إلى الصدر، تسرّب فى التجاعيد المتراكمة تحت الإبط.

زمان كانت اللمسة تسرى بسرعة من طرف الأصابع إلى كعْب الرِّجْل. تبرق فى العصب الذى يطوق شجرة الحياة، وتهز الجذع برعدة دافئة. كانت تتفادى اللمسة والنظرة أيضا، تسلّم بأطراف أصابعها وتسحبها بسرعة:

ـ سعيدة يا يوسف.

إبرتان ونسيج لم يكتمل، خيط أحمر اختارته من أربعين سنة. كانت نريد أن تنسج منه هدية ليوسف ردا على اللوحة التى أهداها لها، دارت فى المحلات طويلا بحثا عن اللون.

فاجأت يوسف باللون، لم يكن يعلم أنها اشترته من أجله، ربما لم يعلم أبدا. لف الخيط حول رقبتها وحيّا نوقها:

ـ بديع، يناسبك.

تكهرب الأحمر فى عروق الخيط، وسرت الرعدة حتى كعب رجلها، كانت أنفاسه الدافئة لمسة كافية.

يوم "البـاى باى" كـانت لمسـته باردة، سـقطت الكرة من يدها، وتناثر الأحمـر على الأرض. لمّت الخيط بسـرعـة، وغـرزت الإبرتين فى الصـوف الخشن:

- باى باى يا أستاذ يوسف.

بعدها؛ زارت الإسكندرية مرتين، مرة لتخطب نوسة لوليم، والأخرى للنزهة، أو ربما بحثا عن صدفة. سافرت فى قطار الصباح، وعادت فى المساء. نظرة على البحر من خلف سور قرب ميدان الرمل، أكلة سمك، ورحلات قصيرة فى الترام، رحلات بلا هدف.

لم يكن لديها أمل فى أن تلتقى بيوسف، ولم تكن قادرة على أن تفعل أكثر من ذلك، ربما كانت تريد أن تقطع الخيط الواهى الباقى.

هو يعرف العنوان، مدرسة القبة الثانوية، لكنه لم يكتب إليها. هى تعقبت أخبار المعارض فى الصحف، ولم تعثر له على خبر، كأنه كان يحدثها عن أوهام.

تستطيع الآن أن تتخيله فى شباك مفتوح على البحر، بسروال داخلى قصير، ومروحة من ريش البط. يرقب ألوان الحياة الباهتة من تحت حاجبين أشيبين. وهى خلفه، لوحة لم تكتمل فى برواز خشبى قديم، معلقة بخيط فوق حائط مشروخ.

ربما أصبح يشبه عبد القوى بساقيه المقوستين والجاكت الأسود القديم، ما الفرق؟

فى الكتب المدرسية القديمة حكاية عن بلبل وشجرة ورد، ذبلت الشجرة فرواها البلبل العاشق بدمه. غرس شوكتها فى قلبه، ورفرف بجناحيه. ظل يغرد بصوت أعلى من ألمه وهو يسقيها، حتى دبت دماؤه فى عروقها، وتفتحت وردتها.

ظلت الحكاية فى الكتب المدرسية طويلا، الآن لم تعد مناسبة. هى أيضا لم تعد قادرة على تخيّل الألم الدافىء؛ وَخْز الشوكة ورفرفة الجناحين.

دحرجت كوكب كرة الأحمر القديم، فردت الخيط ولفت عقدة حول إبرة ثم ناولتها للإبرة الأخرى، كانت قادرة على أن تتذكر. أصابعها أبطأ لكنها قادرة على أى حال.

تمايلت مثل شجرة شوك جفَّ فيها عنقودُ الحياة، وترنَّمت: "شيرى ماريا تى أورو تى، السلام لمريم الملكة، الكرْمة التى لم يفلحها فلاح، ووجد فيها عنقود الحياة.. شيرى ماريا تى..".

كان صوتها يعلو غرزة بعد غرزة:

- شيرى ماريا تى.. أورو تى..

●●●

وضع شعبان أذنه على حافة الشرخ النافذ، وقال لنصر:

- هكذا دائما، أسمعها فى الليل، ولا أعرف هل هى صلاة أم غناء. أتناوم، وأرقب جدى بنصف عين وهو يحْجِل فى الصالة ويشب خلف الشروخ. أحيانا يلتصق بالحائط مثل برص ليسمع. أفعاله العجيبة تجعلنى أتساءل أحيانا": "أهو الحب، أم الخرف؟".

أشعل سيجارة وقال لشعبان:

- أحيانا يوقظنى فى الليل ليحدثنى عن أحلامه، يحدثنى عن أم لم أعرفها، وأب لا أتذكر ملامحه، وأماكن لم ترها عينى، وربما لم يرها هو. أحيانا أخاف منه.

رمى نصر الصور القديمة فى جيب حقيبة السفر، الجدّ والأب والأم، وسهام أيضا. احتفظ بالأوراق المهمة فى حقيبة اليد؛ مائة دولار، وثلاثمائة جنيه، وأصول الشهادات المعتمدة بخاتم النسر، وعناوين وأرقام تليفونات لأصحاب ومعارف هنا وهناك.

ذكره شعبان بالأهم:

- جواز السفر والتذكرة.

- مع المتعهِّد، سنأخذها فى المطار.

- مضمون؟

- غيرى جرّبوه.

- وهناك؟

- أعتقد أن العمل مضمون أيضا.

بعد إغلاق السوستة، حزم شعبان الحقيبة القديمة بحبل. ضيَّق الرباط، وعقد الحبل عقدة فوق عقدة. وعاد يسأله:

- وسهام؟

●●●

رنَّ الجرس.

- هى..

●●●

كانت هى بالفعل:

- أكلمك من ميدان العباسية، جنبك.

- وافقوا على الإجازة؟

- اللجنة بعد أسبوعين، كلمت المدير الإدارى ووعدنى.

- تابعيه بإلحاح حتى يوافق، المهم أن يوقِّع.

- لابد أن أراك.

كان على شعبان أن ينصرف، سأل نصر وهما يتخبطان فى عتمة السلم:

ـ ماذا ستفعل مع سهام الآن؟

ـ كلام.

اقترح شعبان عنوان الفيلم:

ـ "غرام فى بير السلّم" ؟

ـ لا، بل "نكد فى الشوارع".

وعلى عتبة البيت ودع الصاحبُ صاحبَه، تعانقا تحت شروخ بارقة وأصوات رعود:

ـ نشوفك بخير.

ebooks4arabs.blogspot.com

لا يعرف نصر كيف ولد. لم يحدثه أحد عن تلك اللحظة الحميمة، أصواتها وأضوائها، اللمسات الأولى، القبلات ودموع الفرح بمولد إنسان، اكتشاف الاسم.

لم يحدثه أحد عن ذلك أبدا، وإنما حدثه الجدّ عبد القوى طويلا عن الانفجار العظيم، والمصادفة العمياء التى وهبته الحياة:

- حماك الجدار الداخلى، كنت فى الغرفة الخلفية بالمصادفة. تم كل شىء فجأة، طرفة عين، دوى، نقطة ثقيلة معتمة، ثم انفجر ضوء. أنا كنت خارج البيت بالمصادفة، كل شىء بالمصادفة، لم نكن متأكدين من الحياة.

حملْتُك على صدرى، وجريتُ وسط الناس والدخان والغبار. كان الدوى العظيم يطاردنا" :كن كن .. كون.. كن كن.. بووم"، ونحن نجرى ونهلل" : الله أكبر.. الله أكبر". ما زالت الأصداء فى أذنى.

كان صوت الانفجار العظيم يسبق أىّ لحظة أخرى فى ذاكرة نصر، ولادته الحقيقية.

يثرثر الجدّ عبد القوى عن المصادفات الغريبة فى تلك اللحظة، مصادفات الحياة والموت، عثرةُ قدم، التفاتة، سعال، وأشياء أخرى تافهة. يميل الجسم قليلا فينحرف عن مسار الشظية أو الطلقة. فارق بسيط جدا فى المسافة أو فى الوقت، لكنه يهب الحياة، يختار.

يثرثر كثيرا عن تلك المصادفات الغريبة التى تشغل عادة البحارة والجنود العائدين، والتى تقودهم غالبا وبعد تأمل طويل، إما إلى الدروشة، وإما إلى الأرق الطويل فى الغُرَز والخمارات. يضحك وهو يروى التفاصيل الصغيرة، ويتأملها بصياغات مختلفة. خلف تجاعيد الضحكة ألم عظيم.

أحيانا يتساءل فى سرّه: لماذا تتركنى الآن يا نصر؟

أمسك الجدّ حلمة أذن حفيده وزنّ" : برلم.. برلم". ملأه دويا عظيما. طرّز الحكايات أحيانا بكلام عن الأب والأم، فرص الحياة الضائعة. يحكى، ويبكى بلا دموع:

- حملْتُك على كتفى ورجعت، قام القطار فى الليل، ووصل فى الصباح. قطار عسكرى، يمشى ساعة ويركن ساعة، وبرد الشتاء يهجم علينا من الشبابيك المكسورة.

فوقى عسكرى نائم على الرف، يغفو ويصحو على غنوة بعيدة. صوت بعيد يهرب ويرجع للراديو الترانزستور. والعسكرى يتقلب فى المكان الضيق، ورجله تتأرجح فوق رأسى.

رجعت فى الصباح، كان الخواجة عدلى يشرب الشاى على مكتبه، وصنّارة يكنس أمام الدكان. دخلت، وضعْتُك بلفّة البطانية على المكتب، وجلست على العتبة.

نفر عدلى من مكانه لما رآك فى اللفة، وسألني" : أين وجدته؟.. ابن من؟".

حكيت، وحمدت الله على الضراء قبل السراء، وقلت للخواجة عدلى" : قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا". طأطأ رأسه، وردد" : له المجد والإكرام والسجود، كل شيء به كان، وبغيره لم يكن".

صنّارة فرح بك، أتذكر الآن أنه الوحيد الذى استقبلك بفرح. حملك فى

اللفة إلى امرأة تبيع الزبد فى السوق. رضعت منها ورجعتَ على صدره وهو يغنى لك" : كرولم .. كرولم". ولما رأى دموعى، تدلى فكُّه الأسفل، وسكت.

●●●

يصطاد الجدّ حفيده دائما حول صينية شاى، أو طبق عشاء، أو أمام التليفزيون. يستدرجه بعد رشفة أو لقمة أو كلمة، ويزنّ جنب أذنه. وحين يتململ نصر يغيّر الجدّ إرسال الذاكرة. يشارك حفيده الفرجة على فيلم السهرة، لكنه لا يكف عن الكلام، شارحا المشاهد قبل اكتمالها:

- الآن سيقبلها، الخادمة رأتهما، الآن ستصفعه حتى لا تعرف الخادمة ما بينهما. أرأيت، ضربته وطردته.

حين يزيد ضجر نصر ينسحب الجد، لكن بعد أن يرشّ عليه رشّة ملل:

- فيلم تافه، رأيته ألف مرة.

يقوم ويغلق التليفزيون، لكن نصر يعيد فتحه، ويواصل وحده.

●●●

سكن نصرَ صوتُ انفجار عظيم، يحس به أحيانا فى المواقف الحرجة، وفى أخرى تافهة، أو أصبحت تافهة.

فى بداية علاقته مع سهام، كان يسمع الدوىَّ فى عروقه، وهو يستدرجها إلى الشقة أوقات خروج الجد، أو إلى قبلة طويلة فى عتمة السلم.

هو الآن فى الطريق للقائها فى ميدان العباسية، "نكد فى الشوارع" كما يتوقع. رفع رأسه إلى سماء الشتاء؛ نسيم ثلجى، ورذاذ مطر، ووسوسة بروق تشرخ عتمة السحب. طأطأ وواصل طريقه محاذرا أن تنزلق خطوته.

زميلته فى العمل فى المستشفى. هى ممرضة، وهو فنى فى معمل التحاليل. لم يفكر فى هذه المهنة أبدا، لكنه العمل الوحيد الذى أتيح له.

كان يحلم بالهندسة، عمارة أو مدنى، لكن مجموع درجاته فى الثانوية دفعه إلى كلية العلوم. بعدها لم يجد فرصة ليعمل مدرسا، حاول وفشل.

الجد عبد القوى تدخَّل لحل المشكلة. دبّر له وظيفة المستشفى بعد سعى طويل فى ردهات وزارة الصحة، بحثا عن علاقات قديمة تقطّعت خيوطها منذ إحالته للمعاش" : صباح الخير يا سعادة البيه.. نهارك سعيد يا باشا".

دار بين المكاتب شهورا حتى حقق الفرصة النادرة؛ مرتب ثابت وبدل طبيعة عمل، وعلاج مجانى، وحوافز للسهر والطوارئ. لكن نصر ظل يعتبر عمله مؤقتا، التدريس أحسن، دروس خصوصية وفرص للإعارة.

لفتت نظرات نصر القلقة انتباه سهام، اعتبرتها غزلا من رجل عصبى تربكه الحياة، لا تكتمل رغباته ولا تأملاته، تشغْلُه تفاصيل كثيرة عن تأمل الأمور لنهاياتها، تشغله عن الفهم.

هى أيضا أعجبته بطراوتها وصوتها الكسلان، مسافة بين السماع والفهم. التأني، الدفء الكسول الذى يوحى بألفة البيوت، الأنفاس الحارة.

علاقاتها سيئة بموظفى الإدارة. يعتبرون أنفسهم منافسين للأطباء، وهى لا تعاملهم نفس المعاملة، تصدهم. أى شكوى ضدها تكبر عندهم. يستدعيها المدير الإداري ويوبّخها:

- اصحى، وانتبهى لنفسك ولعملك يا سهام، التمريض انتباه. أرواح الناس أمانة فى أيدينا، وأى سهو يقتل، وإذا وقع الخطأ لن يرحمك أحد، المشانق تُعلَّق للأضعف. ساعتها لا ينفعك طبيب ولا "هىء" ولا "مىء"، اصحى ولا تنظرى لفوق.

عرفت قبل نصر خطيبين من موظفى المستشفى، وثالث طبيب؛ العلاقة الأصعب. كانت واقعة للتو من سماء أحلامها حين ظهر نصر، رفرفت حوله

بكسل، وهو رمى نفسه.

●●●

يوم فاتح جده فى موضوع الزواج كانت رغبته حقيقية، يريد رابطة أقوى:

- زميلتى فى المستشفى.

- عندها شقة؟

- لن نتركك وحدك.

- هنا؟!

- نعم، نتزوج ونعيش معك.

وقف الجد:

- حرام يا نصر؛ يدور بى الزمن، وأرجع لأحمل الصخرة على قلبى من جديد. حرام، الآن أريد أن أعيش حياتى.

- وهل نتركك وحدك يا جدى؟!

- طوال عمرى وحدى، الآن سينقص الحمل.

ظن نصر أن المسألة كلام، مفاجأة كلام، وبعدها سيفكر على نحو آخر. لكن الجدّ رفض بعناد:

- طوال عمرى لحمى لغيرى، الآن أريد أن أنوق طعم نفسى.

أسند رأسه على عامود السرير، وبكى بلا دموع:

- أين أنت يا غالية؟

●●●

ذات ليل أيقظه:

- زعلان يا نصر؟

- لا يا جدى.

- صوتك يقول غير كلامك، زعلان؟

- الموضوع كله خرج من رأسى.

- لماذا يا نصر، هل غيرت البنت كلامها معك؟

- لا، أنا غيرت رأيى. تصبح على خير.

- لماذا يا نصر؟

فى ذلك الوقت كانت آثار الزلزال بدأت تظهر، ودبَّت شروخ رفيعة فى الجدران. يتعجب الجد، ويهزُّ نصر الذى يتأهب للنوم:

- لماذا لم تظهر هذه الشروخ إلا الآن، بعد الزلزال بسنين؟!

- موجودة منذ زمن يا جدى، ربما قبل الزلزال، لكنك لم تنتبه. تصبح على خير.

زادت الشروخ، وانفرجت شفاهها، توشك الآن أن تبوح بالكلمة القاسية؛ الانهيار.

يتأمل الجدّ الصور المعلقة على الشروخ.

مصطفى بشورت وكاب ضباطى فى تمثيلية مدرسية، مصطفى فى رحلة للأهرامات، مصطفى بالعفريتة الزرقاء، مصطفى فى الكوشة، مصطفى يعزف على السمسمية. الله يرحمه.

السمسمية وسط صور الغالى، خشب قديم وخمسة أوتار مرتخية، بصمة صامتة على الجدار. يفكر عبد القوى: يد القدر.

صورة وحيدة لنصر، فى نزهة نيلية، وقد تعلقت يده بخشبة القلع المفرود، ومالت الأخرى مرفرفة على الماء، ووجهه فى اتجاه التيار.

عبد القوى على حائط وحده، على يمينه ليسانس الحقوق فى برواز

خشبى بلون البن، وتحته صورة لنديم أفندى فى لقطة تذكارية للقاء حزبى، وقد تاه وسط وجوه كثيرة متشابهة تحت صف طويل من الطرابيش. تآكلت حواف الصورة، وشابت أطراف الطرابيش.

يتأمل الشروخ على مهل، وحين يتعب يجلس على رأس النائم:

- اصح يا نصر.

- أريد أن أنام، الصبح شُغْل.

- عندى لك مفاجأة.

- إيه يا جدى.

- أنا موافق.

- على أى شىء؟

- على طلبك.

- أى طلب؟

- الزواج، هنا فى الشقة.

- الآن لا أريد.

- لماذا يا نصر، زعلان؟!

دبت الشروخ تحت جفن النائم، ونفخ:

- الموضوع كله خرج من رأسى.

حايلَه:

- اسمها سهام، أليس كذلك؟

- اسمها زفت.

ينفخ نصر ويحمل وسادته ويهرب. يطوى الوسادة حول أذنيه، ويكمل نومه على كنبة فى الصالة.

دائما يصحو عبد القوى قبل الفجر، يشب بوجهه على شباك السرير النحاسى ويفكر فى الأمر. هو لا يصدق أن الولد لا يريدها، أخبرته كوكب بأشياء أخرى، وهو اندهش:

- متأكدة؟!

- نعم، هى البنت. تأتى معه أثناء وجودك خارج البيت، يوم صرف المعاش، أو خلال موعدك مع الطبيب، أو انشغالك بمشاوير أخرى. جيل غريب، تولد البنت فى الصباح وتجرى مع الشباب فى الظهر، يا رب ارحم.

- سهام؟!

- هى يا عبد القوى أفندى، رأيت بعينى، وسمعت حركتهما فى شقتك من خلال الشروخ، عيب أن تكذبنى.

●●●

ترصَّدت كوكب الولد، وفاجأته مع البنت على الباب:

- عيب يا نصر.

وهددته:

- لو عرف عبد القوى أفندي سيهدّ الدنيا.

كلام بسرعة، ثم رزعت الباب.

فى المرة التالية كانت الوقفة أطول.

- إيه الحكاية يا نصر؟!

- خطيبتى يا حضرة الناظرة.

- هكذا؛ لا جدّك عارف ولا أهلها، وتنفرد بها فى الشقة، وتقول: خطيبتى!!

- جدّى عارف.

- وساكت؟!.. عارف وساكت يا نصر؟!

- عارف أننى سأتزوجها، ورفض أن يتم ذلك فى شقته.

- رفض الزواج ويقبل ما تفعله؟!

تدخلت سهام وشرحت:

- جده لم يرفض الزواج، لكنه رفض أن نقيم معه. الآن نبحث عن عمل بالخارج لندبر ثمن الشقة.

تجاهلتْها كوكب، دخلت ورزعت الباب. تعجّبت سهام:

- لماذا تحرق أعصابها هكذا؟!

نقلت كوكب الكلام لعبد القوى فى وقفة طويلة على الباب. قدّمت وأخّرت فى الكلام، لكنها قالت كل ما عندها، واشترطت عليه:

- أرجوك لا تخبره أنك عرفت شيئا منى، الآن لم يعد تلميذا فى مدرستى، أصبح رجلا، يمكن أن يضايقنى أو يقول كلاما يجرحنى. فى هذه الحالة لن احتمله، لا أنا أمه ولا أخته.

أحرج الكلام عبد القوى، لكن حزنه كان أكبر. صارحها بحيرته:

- عندما وافقتُ غيَّر الولد رأيه، وقال: انس الموضوع.

• ●●●

كان موقف نصر قد اختلف فعلا، قال لجده بحسم:

- لا.

- السفر لن يحل المشكلة يا نصر.

- بل جاء فى الوقت المناسب، وسيحل كل المشاكل.

- قد يضيّع كل شئ، حتى البنت.

- لا أريدها، الآن لا أريدها، لماذا لا تصدقنى؟

- والوظيفة، والشقة المضمونة؟

نطّ نصر حتى كاد يخبط رأسه بمروحة السقف، وزعق مطاردا عصافير الأوهام:

- هِشّ.. هِشّ..

لقد نبَّهتْ تلك الصيحة الجدّ لصوت الطنين الذى ما زال يتردد فى أذنيه، بعدها أصبح يخطف رأسه فجأة بعيدا عن الصوت، وينبه نفسه:

- النّحلة.

عصرت سهام يد نصر، وعاتبته تحت مظلة محطة أتوبيسات العباسية:

- أين كنت طول النهار؟.. نشفت من البرد والقلق؛ من البيت للمستشفى، ومن تليفون لتليفون.

- أنا أيضا اتصلت، واسألهم فى المستشفى.

- الصبح ذهبت إلى بيتكم، سألت الناظرة وجريت، خفت أن يرانى جدك.

- شغلتْنى مشاكل اللحظات الأخيرة، التأشيرة والتذكرة وحقيبة السفر.

رذاذ مطر، ورعدة باردة.

شردت سهام، ثم عاتبته:

- لا أعرف ماذا سأفعل بعدك.

- الإجازة أهم شىء، لا تهملى متابعة الطلب.

- المدير الإداري وعدنى، لكننى لا ارتاح له؛ سمج وبذئ وطويل اليد.

- تابعيه حتى يوافق، ضحكة منك تنهى المسألة.

- المهم أن ترسل عقد العمل فور وصولك، ليعرض هو الطلب فى أول اجتماع للجنة.

- سأفعل ذلك بالتأكيد، لكن المهم أن تضمنى موافقته، اللجنة مجرد شكل.

- هو وعدنى.

- واثقة فى كلامه؟

- من أين تأتى الثقة ؟!

●●●

أعادت طرح السؤال الصعب على نفسها وأطرقت تفكر.

●●●

قبّلت أطراف أصابعه، كانت تبكى، خمّن ذلك دون أن ينظر إلى وجهها:

- لماذا تبكين؟

- لا أعرف، ربنا يستر.

انتهى الكلام فسألته:

- إلى أين الآن؟

- أنا إلى البيت، السفر صباحا.

- وأنا؟!

- الوقت تأخر والمطر سيشتد.

- سأقابلك فى المطار.

- لا تتعبى نفسك، المهم الإجازة. تاكسى..

فى التاكسى خزنت المشهد الأخير تحت جفونها، وبلعت هواجسها: سترك يارب. كانت أفكارها متضاربة. تحسست بطنها وغاصت فى العتْمة، كانت تخشى أن تقع عين السائق عليها فى المرآة الأمامية.

كانت كوكب مشغولة بالتريكو القديم وإعلانات التليفزيون، لم تحس بالبرد. أدفأت حركة الخيط الأحمر أصابعها، وانبسط قلبها مع زيطة الإعلانات؛ شاليهات ومساحيق غسيل وجرادل ومقشات، وزكية زكريا، والزعيم، وسناء جميل تغيِّر حالها وتسكن إعلان الفيلا.

غرزة، ونظرة. تتأمل الإعلانات وتضحك من تأملاتها، ولما رأت عمر الشريف يأخذ بيد يسرا على الطريق السيراميكى، غرزت الإبرتين فى كرة الخيط، وأطفأت التليفزيون:

- زمان يا عمر.

●●●

زمان كانت تحفظ صورته فى كتبها، مع كمال الشناوى، وأنور وجدى ومحسن سرحان. كانت تبالغ فى إخفائها، تخجل جدا.

●●●

أطفأت التليفزيون وألقت نظرة على الشقة. اكتشفت أنها نسيت الباب مواربا. زمان لم تكن تنسى. لم يكن معها مفتاح، لكنها كانت تنبه ماما أنجيل وبابا عدلى دائما لإغلاق الباب بالمفتاح.

لما ماتت ماما أنجيل أخذت مفتاحها، وتولت إغلاق الباب بالمفتاح والترابيس. كانت تفعل ذلك باهتمام، وتناجى القديسة دميانة فى وحدتها:

- اقبلينى يا شفيعة العذارى بين بناتك الأربعين الموصوفات بالطهارة.

●●●

لما مات بابا عدلى أصبح معها مفتاحان، لكنها بدأت تنسى.

●●●

حين مات بابا عدلى لم تعط كوكب مفتاحه لوليم. له بيتُه، ومشغول بنفسه طول الوقت. حتى فى أيام الطفولة كان يلعب وحده أو يجرى مع أصحابه، وحين ماتت ماما أنجيل هجّ من البيت. كلما يكبر يزيد بعادُه.

تخرَّج واشتغل، وقبل أن يكمل الثلاثين تزوج نادية. أنجب منها ثلاثة، التوأم نادى وغالى، ثم حنا.

ماتت نادية، وأصبح انشغاله بنفسه حتميا.

فى مرض بابا عدلى الأخير كانت كوكب وحدها تقريبا. يغيب وليم طويلا، ويطل فجأة. يعانق بحرارة، ويبكى أحيانا:

- اعذرنى يا بابا، لولا انشغالى بالأولاد لخدمتك بنفسى.

ويتودد لكوكب:

- قلبى معك يا أختى، لكن اليد قصيرة. شغل وخدمة بيوت، مدرسة وحضانة وغسيل وطبخ وكنس، يا رب ارحم.

ينهى عدلى حديث الهموم:

- ربنا يساعد الجميع، يكفيك همك ويكفيها همّها، لا تثْقِل عليها بما عندك يا ولدى.

تستقبل كوكب زيارته بدمعة، وتودعه بوجه جامد. يضع يده فى جيبه وهو يودعها على الباب:

- محتاجة حاجة، يلزمك أى شىء يا أختى؟

- خير الخواجة عدلى بزيادة.
- سعيدة يا كوكب.
- نشوفك بخير.

أحيانا كانت تقول لأبيها:

- كأنه يريد شيئا، لكن ماذا أستطيع أن أفعل.

●●●

ظل الموت فى مشاعر كوكب شيئا يخصُّ النساء، الأمهات، ماما أنجيل ونادية. الرجال كائنات أخرى، ينتصبون فى وجه الأيام، ويبسطون ظلَّهم على الأبناء.

كانت ترعى بابا عدلى فى مرضه دون أن يخطر على بالها سوء. أصعب الاحتمالات عندها أن تدوم هذه اللقطة، يزيد وهنه ويطول سكوته، لكن اللقطة لن تتلاشى. حين مات تلخبطت أفكارها ومشاعرها، اهتز عمود الأساس؛ بابا مات.

بكى وليم فى ذلك اليوم مثل طفل. ترك أولاده مع الجيران وجرى إلى كوكب. أنهى الإجراءات بنفسه، ونقل الجثمان إلى مقابر العائلة فى أسيوط.

دفن وعاد مع السيارة. ترك كوكب وسط أهل لا تعرفهم، كأنها ضيفة غريبة. اختلطت كلمات الترحيب بالمواساة. باتت صاحية، ورجعت فى أول قطار.

أول مرة زارها وليم بعد ذلك كان معه ولده حنا بحقيبة الحضانة. جلس الولد على رجل عمته، وتحدث وليم عن مشاغله، ثم قدم لها كشف حساب بمصروفات الدفن.

ردّت له الورقة:

- أبوك لم يترك جنيها يا وليم، وأنا تحمّلت كل المصاريف فى السنة الأخيرة.

- وفلوس الدكان؟

- صرف الفلوس على نفسه، ضاعت فى العلاج. أدوية القلب غالية، والدكاترة مناشير.

- وبضاعة الدكان؟

- باعها بعدما ترك الدكان، ماذا كان يفعل بها، باع وصرف. آخر سنة لم يكن معه مليم، أنا تكفّلت بكل شىء؛ العلاج واللبس والأكل والإيجار، كل شىء يا وليم، فماذا تريد منى الآن؟

- كنت ترفضين أن أساعدك.

- بل كنتُ أرد على الكلام بكلام" : يلزمك شىء يا كوكب؟.. تعيش يا وليم".

ولخّصت الموقف فى جملة حاسمة:

- الخواجة عدلى لم يترك مليما.

بلع الكلام وهز رأسه:

- صادقة يا أختى.

واقترح عليها:

- نقسم مصاريف الدفن بيننا.

●●●

فى المرة الثانية كانت الجلسة أطول. بكى وبكت، واستمر الدور طويلا. بعد الشاى والكيك قلب وليم حديث الأحزان، وقال لها:

- تعالى نفكر فى حالنا يا أختى.

شرح حاله وحيرته فى خدمة أولاده، واقترح عليها لمّ الشمل:

- نسكن فى بيت واحد، أرعاك وسط أولادى، ونخدم بعضنا.

- كبرتُ على خدمة الأولاد يا وليم، خدمة أبوك هدّت حيلى.

- أحسن لك، وأحسن لنا.

- كل واحد أدرى بحاله.

- طاوعينى، نسكن شقة واحدة، ونقسم خلو الثانية بيننا.

- راحة البال أهم.

- فكّرى.

- لو الأمر ينفعنى ما ترددت.

- قلبى مشغول عليك يا أختى.

- تكفيك مشاكل أولادك.

ومثل كل مرة:

- سعيدة يا كوكب.

- نشوفك بخير.

فى المرة التالية سدت باب الكلام المعاد، ساقت الكلام فى طريق آخر، واقترحت عليه:

- عندى لك عروسة.

- أتزوَّج مرَّة أخرى؟!

- الحل الوحيد، تخدمك وتخدم أولادك.

- ومن ترضى بذلك؟

- واحدة، ظروفها تجعلها ترضى بالقليل، ولا تتكبر على حالك.

- أعرفها؟

- لا، هى قريبة إحدى زميلاتى، تعيش متنقلة بين بيوت أخوتها فى الإسكندرية، من بيت لبيت، وسنها كبير.

لم يكن قادرا على الحسم، وهى افترضت الموافقة، وسدت عليه سبل التفكير فى أى حلول أخرى:

- تزوّجْ ودبر حالك، أما كوكب فدعها فى حالها، طلّعنى من دماغك يا وليم.

سافرت معه إلى الإسكندرية لتخطب له أوسة، ودمعت عينها وهى راجعة فى قطار المساء:

- كان نفسى أزور الإسكندرية من زمان.

هى التى سعت به لأوسة، لكنها ترددت عندما رأتها، بدت لها أكبر من وليم ومنها أيضا، ربما فوق الخامسة والأربعين. ترددت لكنها أخفت ترددها فى كلام المجاملة، والرد على الترحيب الإسكندرانى الحار.

تركت الموضوع لوليم.

هو سأل عن السن، لكنه لم يتردد. حسب وحسم وتزوج.

بعد الزواج زاد البعاد، انشغلت أوسة بالأولاد، وشغلت وليم أيضا، شغلته أكثر مما كان. وعندما زارتهم كوكب استاءت من استقبالها الفاتر، وقالت لوليم وهو يودعها على الباب:

- صحيح، الإنسان يكره من أوجده.

●●●

يزورها وليم أحيانا، يغيب شهرين أو ثلاثة ويظهر، أحيانا تعجبه أشياء من تذكارات بابا وماما فيأخذها. حتى السريرين الصغيرين طلبهما لأولاده فقالت له كوكب:

- خذ ما تريد، ماذا أفعل بهما؟

نقلهما على الفور على شبكة سيارته، وفرد عليهما لحافا.

●●●

مرة جاءها بعرض للزواج. كان سعيدا وفخورا بالاقتراح كأنه يرد لها الجميل:

- ظروفه مثل ظروفى بعد موت أم الأولاد.

رغم توده صدته بجفاء:

- ابحث له عن واحدة مثل أوسة، تخدمه وتخدم أولاده.

- كل الناس تخدم بعضها، والرجل ميسور الرزق، عنده ورشة الومنيوم وشقة واسعة.

لم توافق، لكنها نقرت بيضة الكلام:

- وماذا نفعل بهذه الشقة؟

- تنفع الأولاد، أو نتنازل عنها ونقسم الخلو.

فقست البيضة، وبان الكتكوت الأقرع. كانت كوكب حاسمة فى ردها:

- انس الشقة يا وليم، البيت فى الأصل بيتنا، ولن أتركه حية ولا ميتة، سأوصى أن يدفنونى هنا، تحت سرير أمك وأبيك.

كانت عاتبة على الدنيا، هى تستحق حظا أحسن. رفضت بعناد وشدت هدومها:

- الشقة.. الشقة، كل كلام عندك ينتهى بالشقة!

●●●

وهى تتذكر الموقف القديم شدت الإبرة فانفلتت من الخيط الأحمر، وانفرط سطران من النسيج. كوّمت التريكو جنبها، وطرقعت أصابعها. الآن تعيد التفكير فى الموقف" :هل كنت قاسية؟".

وحدها فى البيت الذى شرَّخه الزلزال انطفأت أنوار الشروخ، وخفتت أصوات الحياة فى الشقة المجاورة، ليس سوى تكتكة زمبلك المنبه الصينى القديم خلف الشقوق.

فى الجهة القبلية شرفة بطول الشقة، تمتد بحذاء غرفة وليم القديمة والصالة وغرفة النوم. تطل منها على سوق الخضار والفاكهة. تُدلّى السلة بالحبل الطويل، وتنتظر أن يجاوبها الصاوى أو أحد أولاده.

زمان دفع الصاوى ستة آلاف جنيه "خُلوَّ رِجْل" مقابل تأجير دكان أبيها، وحوّله إلى متجر للخضار والفاكهة، بعدها زحفت عربات الخضار من الرصيف المقابل إلى رصيف البيت.

تعجب وليم يوم أخبرته كوكب أن الصاوى دفع هذا المبلغ فقط، وزاد عجبه لما عرف أن المرحوم اقتسمه مع صاحب البيت.

ذكَّرته بأن أباه باع البيت كله بمثل هذا المبلغ أيام مرض ماما أنجيل:

- كان ذلك ثمن البيت كله، باعه أبوك لبسيونى بثلاثة آلاف، أما هذا فنصف خلو رجل لدكان ثلاثة أمتار فى مترين.

طأطأ وليم رأسه، وقال لها:

- صادقة يا أختى.

الآن تجد نفسها تعيد حساب كل شىء.

●●●

بسيونى نفسه أعاد حساباته، سعى بعد ذلك لإخلاء البيت كله من السكان. عرض على الصاوى ضعف ما دفع. كان ذلك قبل الزلزال، وعرض على كوكب سبعة آلاف، ولو طلبت زيادة لدفع، لكنها قالت له:

- البيت عزيز على قلبى يا بسيونى، هو فى الأصل بيت المرحوم بابا، وخروجى منه كأنه موتى.

الرجل لم يلح، لكنه عاد للكلام بعد الزلزال ومعه أوراق الأمر بإزالة البيت:

- الآن لابد من الإخلاء يا ست الناظرة، القانون يعطينى الحق فى إخلاء البيت من سكانه جبريا.

- وقانون ربنا يا بسيونى، والمعروف والأصول؟

- البيت أصبح خطرا على من يسكنه، يمكن أن ينهار فى أى لحظة، ولا أستطيع أن أنصحك بالموت تحت أنقاضه، لا القانون يسمح بذلك، ولا الدِّين، ولا الأصول.

وجدد العرض القديم بتعديل بسيط:

- سأعطيك خمسة آلاف، لكن لا تخبرى أحدا أننى سأدفع لك. سأفعل ذلك مراعاة لأحوالك أما بقية السكان فسأطردهم بالقانون، لن أدفع لأى واحد منهم جنيها.

سكتت، وهو كرر الكلام:

- أنصحك بحكم الود والعشرة القديمة أن تبحثى عن حل لنفسك، البيت سينهار.

وذكّرها بالمرحوم:

- الخواجة عدلى كان يقول لى دائما" : الدين النصيحة".

●●●

ألقت نظرة من الشرفة ورجعت، برد ورذاذ مطر ورعود متقطعة، تخيلت غضبة السماء يوم استشهاد العذارى، وسمعت تأوهاتهن والجنود يمشطون جلودهن بأمشاط الحديد المحمى ويصبون الخل على الجراح. رسمت علامة الصليب وتوسلت للملاك:

- احرسنى وخفّف عنى كما خففت أوجاعهن يوم المحنة.

صلّى الجدّ عبد القوى العشاء جالسا وسط الجماعة، صلى ونسى نفسه. أيقظه خادم المسجد بعد أن أطفأ الأنوار، وتأهب لإغلاق الباب.

كان مصباح الشارع يعبر من الرصيف المقابل الى داخل المسجد، راسما طريقا مضيئا بين الباب والمنبر، وعبد القوى فى آخر ذلك الأنبوب المضىء، جالسا جلسة التسليم قرب المنبر الخالى وقد مال رأسه على كتفه.

ركبه ظلُّ الخادم خطوة خطوة، وهزته يده:

- وحّدوه.

انتبه عبد القوى للصيْحة، فهبَّ من عتمته، وختم صلاته:

- السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله.

ثم تساند على خشب المنبر، وجاوب الصيحة وهو ينهض:

- أنا عبد القوى؛ الله ربى، والإسلام دينى، والقرآن دليلى، ومحمد شفيعي.

ضربته لفحة باردة فانتبه إلى أنه لا يزال فى الدنيا، ورأى الخادم يستدير فتبعه خارجا، وأكمل تسبيحه همسا.

سانده الخادم على العتبة وهو ينحنى ليلبس حذاءه، وثبّت قدميه على أرض الشارع. تحسّس بلل الأرض بعصاه، وواصل زحفه البطئ إلى صنّارة تحت رذاذ مطر خفيف.

أمام عبد القوى بالوعة مفتوحة، تحسسها بطرف عصاه على بعد نصف خطْوة، المسافة التى اعتاد أن يتركها لغيره. كان فى خياله دائما رجل يسبقه بنصف خطوة، الآن على حافة الهوة تبدو الخطوة التالية مخيفة. تراجع خطوتين، وتفادى الفوهة المفتوحة، وحمد الله على الحذر القديم.

يفكر الآن فى أن تلك المسافة التى حرص عليها خلف صهره، مكنته أن يتفادى مصائر صعبة. كانت السياسة بعد تلك الأيام عملا أكثر صعوبة والتباسا.

حتى فى وظيفته كان حريصا على ذلك، يدرس كل الجوانب بعناية وحذر، يعدّ القرار، ويترك اللمسة الاخيرة لرجل آخر يسبقه يتخذ القرار ويتحمل مسئوليته. وعندما أصبح مديرا عاما للموظفين، وصاحب قرار وتوقيع معتمد، كان يتعمَّد أن يمشى خلف اللوائح والقوانين بنصف خطْوة، ولا يوقع ويختم إلا بعد أن يملأ الورقة بتوقيعات كل الموظفين الأصغر منه. تفادى بذلك دائما أى مطبات إدارية أو قانونية.

تعود أيضا أن يتأمل كثيرا تلك المسائل التى لا ينتبه لها الناس إلا نادرا، الخطى، وإيماءات الأيدى، وطقطقة الأفكار، والتلاوين المستورة خلف الابتسامات.

ساعدتْه تلك التأملات على تفادى هوة الحزن التى انفتحت أمامه بموت الغالية، شغل نفسه بتأمل مصطفى فى تلك الأيام التى يتلقى فيها الطفل إشارات الحياة، ويشكل أبجديته الأولى.

يعرف الآن معنى الصَّرخات والهمهمات، إيماءات الجوع والخوف والفرح. ويستطيع أن يستبطن تلك التلاوين المراوغة فى الابتسامات والكلمات، التلاوين التى تتداخل فيها المحبة والكراهية، الإيمان والشك، الطاعة والتمرد.

عندما بدأ مصطفى يحبو تأمل بفرح تلك الخطوات الأولى لإنسان، البواعث الخفية للحركة والسكون. ساانده بحذر:

- تاتا.. تاتا..

لم يرث الولد حذره، كانت خطاه أوسع وأكثر انفلاتا، يقع ويضحك، ثم ينهض ويواصل.

أيام الثورة كان الأرمل الشاب فى الخامسة والعشرين. ومصطفى تخطى عامه الثالث. خطاه تزداد حذرا، وخطى الولد تزداد اتساعا. يرى فيه أحيانا ملامح جده نديم أفندى.

كان مصطفى فى تلك السن مسحورا بإيقاع المارشات العسكرية. يهز كتفيه فى البدلة الكاكى، ويقطب جبينه تحت حافة الكاب، وهو يتأبط عصا اللواء نجيب المصنوعة من حلوى حمراء، ويدب بقدميه على الأرض بحماس. أحيانا يسرقه الإيقاع فيصطدم بحائط أو يتعثر فى طرف سجادة. يبكى، ويلوِّن دمُه حافةَ الشورت الكاكى. بعد لحظات يضع عصا اللواء فى فمه ويمص ويضحك.

لازمت تلك الخطى المنفلتة مصطفى طول حياته؛ رِجْلٌ فى المدرسة والأخرى فى الشارع، أذنٌ فى الفصل والأخرى فى الملعب، عين على الكتاب وعينٌ على الشباك، وبعد الإعدادية تعلم القفز على الأسوار.

يعترف عبد القوى أنه فشل أن يضبط خطوات الولد. كان مسكونا بإيقاع صاخب لم يقدر هو على احتوائه، أخلاط من مارشات حماسية وأغان عاطفية شاعت فى ذلك الزمان، اختار لنفسه كل شئ تقريبا.

قبل أن يكمل ثمانية عشر عاما كان قد تزوج: هجر المدرسة، واشتغل ميكانيكيا، ودخن وتزوج.

لم يكن عبد القوى راضيا عن أى شئ من ذلك، لكنه فضّل فى النهاية أن يتراجع نصف خطْوة، وأن يترك الرجل الصغير يتحمل مسئولية أعماله. لم يمنحه رضاه، لكنه لم يجسر على إغضابه.

مصطفى أيضا كان ضجرا من أفكار أبيه، يعشق العفريتة الزرقاء، وضجيج الورش والآلات، ولا يستطيع ان يتخيل نفسه مثل أبيه، ببدلة وكرافتة، خلف مكتب معدنى فى غرفة رطبة.

رحل مع عروسه إلى بلدها؛ السويس. كان قربه من أبيه يقيد إيقاع أفكاره، فضّل أن يبتعد.

أحب حياته هناك، وعشق السمسمية. يسهر مع أصحابه آخر الأسبوع فى مقهى قريب من سكنه، يباريهم فى الغناء، ويعزف على السمسمية كأنه سويسى عريق.

حين زاره أبوه أصرَّ أن يصحبه إلى المقهى. لم يكن يخجل من حياته، قال لأبيه:

ـ فرصة تفكّ نفسك يا بابا.

المعلِّم "هلب" صاحب المقهى حيا الضيف بطبق من فواكه البحر، وحياه صبى المقهى القزم "بسّة" برقصة. عزف مصطفى على السمسمية، وتولى أحد أصحابه ضبط الإيقاع بمعلقتين معدنيتين.

فى الجلسة رائحة حشيش. تظاهر عبد القوى بالضجر، ضجرُ موظف مهم مؤتمن على ختم النسر فى جلسة لا تناسب مقامه. لم يشعر أحد بضجره.

بعد فترة روَّضته السمسمية، وطاله دخان المخدر، فضل أن يتغافل عن الأمر. وعندما حياه أحد أصحاب مصطفى بسيجارة تغافل ودخنها وكأنه لا يعرف ماذا يفعل؛ جرّب.

كركرت جوزة فى أطراف الجلسة، فانتبه المعلم هلب لحرج الموقف، سحب الضيف بلطف، ودعاه إلى مجلسه المخصوص على الرصيف:

ـ دعنا من مجلس الشباب، وتعال أنا وأنت وحدنا، نشرب قهوتنا، ونلف سيجارتنا، ونتكلم براحتنا.

قبل الدعوة، شرب قهوة المعلم، ودخن سيجارته الملفوفة، تغافل ودخنها.

مع السيجارة الثالثة اندمج مع نفسه.

نط القزم بسة وحيّاه برقصة أخرى، جدّف بخطواته فى بحر الشارع، وهو يطوى القلوع الوهمية ويفردها بإيماءات يديه:

ـ "يا متوهة البحارة يا ماريا

خدتِ الجنيه لحمر فى شربة ميّه."

اندمج عبد القوى، تتبع الكلام حتى اكتملت الصورة فى رأسه ونطق المعنى:

ـ البحار ضيّع فلوسه ورحل، شرب الكأس ورحل، تاه فى بحر الشوق.

لم يفطن المعلم هلب للصلة بين الكلام والأغنية، لكنه استبشر خيراً، اعتبره فاتحة خير بعد الصمت الطويل الممل. هز رأسه وسأله سؤال فاهم:

ـ وشوقك لإيه يا ترى؟

ارتبك عبد القوى، فأعاد المعلم هلب المحاولة:

ـ يا بحر اكشف لونك؛ شوقك لإيه؟

غاص عبد القوى فى نفسه، وتشبث بآخر كلمتين فى الأغنية:

ـ شربة مية، الدنيا.

ـ ما معنى هذا؟

ـ كلام، اين عم كلام.

لم يفهم المعلم هلب سياق الحديث، لكنه خمّن:

- فهمت: مخك كبير يا عبد القوى أفندى، وتحب خلاصة الكلام، الحِكَم.

فرط المعلم سيجارتين ولفهما، فعل ذلك على المكشوف، عينى عينك. لفهما بزهق وحياه بواحدة:

- خد، فك لسانك، وبعدها كلمنى عن شوقك.

●●●

مرت شابة قرب الرصيف، فى خطواتها جرأة تدل على ألفتها للمكان وناسه. أغلق المعلم هلب طريقها بعصاه، وطلب منها رسْمَ المرور:

- عندنا ضيف عزيز، ولازم نحيّيه برقصة.

حيّاها مصطفى بلحن تحبه، فضحكت ورضخت للطلب. هزت وسطها هز صياد يسحب شباكه، وغنت مع السمسمية:

- ويا عازبة ياللى ما لكيش جوز

بيعى الحلق وهاتيلك جوز

يسهر معاكى ورا الناموسية

ويطعمك بقلاوة ولوز.

مال عبد القوى على المعلم هلب وهمس:

- الغالية.

- من؟

- سألتنى عن شوقى، وأنا أجاوبك الآن.

- حريمك؟

- الله يرحمها.

- متى؟

- زمان، من عمر مصطفى.

- ياه، وبعدها؟

- يا متوهة البحارة يا ماريا.

خمن المعلّم هلب أنه لو شجعه على الكلام فلن يضمن المسار، كرّ عليه ليسكته:

- لا تشغل نفسك بما لا يخصك. ربك قسّم الأشغال؛ شغلنا أن نعيش، أما الموت فصنعته هو جلّ شأنه.

- ما يعرف حلاوة الروح، إلا من جرّب الموت فى أحبابه.

طأطأ المعلم هلب رأسه لعبد القوى، وتحمل صمته بقية السهرة. لكنه لم يستطع أن يدارى مله عند وداعه، واشترط عليه فى الزيارة المقبلة ألا ينسى الأستاذ فى مصر كما فعل هذه المرة.

- أى أستاذ؟

- الأستاذ لسانك، لابد أن تحضره معك يا عبد القوى أفندى، الكلام فانوس المجالس.

وقال لمصطفى:

- ليلة أبيك خرساء؛ ثقل الحمل على المركب، والهلب انغرز فى الرمل.

●●●

كانت تلك السهرة بالنسبة لعبد القوى فرصة ليعيد التفكير فى حياته. مازال فى الأربعين، ويستطيع أن يبدأ من جديد. مرّت بخاطره وجوه كثيرة، لكن وجه كوكب كان عصيا حتى على الخيال.

كان يحاول أن يخطط لأيامه المقبلة حين حدث ما حدث لمصطفى. انقلبت حياته مرة أخرى، ووجد نفسه على بداية الطريق الصعب الذى سار عليه قبل عشرين عاما.

مات مصطفى وزوجته تحت الأنقاض فى غارة على السويس. يومها كان عبد القوى هناك يحاول أن يقنع ولده بالعودة إلى القاهرة جنبه، وبعيدا عن المدينة المهددة بالقنابل والموت.

أثناء الغارة كان خارج المنزل يشترى سجائر وعلبة حليب لحفيده الوليد نصر. ربما أنقذته نصف خطوة من أن يموت معهما تحت الأنقاض.

حمل الوليد وعاد فى قطار الفجر، وسط العساكر والمهاجرين. أرضعته شابة مهاجرة، وغطاه جندى ببطانية رمادية. هو كان يهتز مع حركة القطار، يتحسس موضع فص الفيروز الدى سقط من الخاتم وسط الأنقاض، ويفكر فى مدى قدرته على أن يحمل الصخرة مرة أخرى، ويعيد مشوار التعب القديم.

ebooks4arabs.blogspot.com

لم يجد نصر جده حين عاد للشقة.

تردد طويلا أمام باب كوكب، لكنها فاجأته وفتحت الشراعة، وكأنها كانت تترقب خطواته:

- أهلا يا نصر.

- لم أجد جدّى فى الشقة، ولا أعرف أين راح.

- ربما ذهب إلى صنّارة.

- أخبرنى بذلك فعلا، لكننى لا أعرف أين يسكن صنّارة.

- ولا أنا.

كانت ودودة معه على غير عادتها، حاولت أن تطمئنه على جده وسألته عن سهام، وقالت:

- مسكينة، فى الشهور الأخيرة أحبتني وأحببتها، ليتها تزورنى. هى مسكينة، وجدك أيضا مسكين.

أغلق باب الكلام الماكر وانسحب:

- تصبحىْ على خير.

- نشوفك بخير.

كان نصر طالبا فى مدرستها الإعدادية أيام شبابها. رآها بالخيرزانة والخطوة النشطة المنتظمة، وسمع صوتها الآمر فى طابور الصباح. تجرأ

مرة وذكَرها بنفسه. ذهب إلى مكتبها:

- أنا نصر ياحضرة الناظرة.

- عارفة يا شاطر.

- جدى هو جاركم عبد القوى أفندى.

- عارفة، ماذا تريد؟

- لا شيء، أردت أن أذكّرك بنفسى.

- لماذا؛ لألعب معك فى الحوش؟

ولسعته بالخيرزانة.

- لا تأت إلى هنا مرة أخرى دون سبب.

●●●

هى لا تظن أنه غفر لها ذلك الموقف. لم تعرف أن عبد القوى دافع عن تصرفها وقال لحفيده:

- ربما كان ذلك هو نظامها فى العمل، لا تعرف ابن عمها ولا ابن جارها، الشغْل شغل.

لم يكتف عبد القوى بذلك، لف ودار بحفيده فى الكلام، وعاد للحديث القديم:

- هى مثل أبيها بالضبط، تكشيرة، وقلب طيب. أنا لا أنسى أبدا معروف الخواجة عدلى حين عدت بك من السويس فى لفة الصوف الرمادية. توسط لك ليقبلوك فى حضانة تابعة للكنيسة، كانت أقرب حضانة للبيت. وكان أيضا يختار لك المرضعات بنفسه من بين نساء السوق.

وقال عبد القوى لحفيده:

- صنّارة أيضا كان يحبك، ينتظرني أمام الحضانة ويتْبعنى وأنا عائد

بك. يحمل حقيبتى وأكياس الأكل، ويغنى لك من خلف ظهرى" :كرولم.. كرولم". يتبعنى حتى باب البيت ويرجع، طلوع صنّارة ممنوع بأمر الخواجة عدلى.

●●●

كان وجه عدلى محيرا، فى نظراته خيط رفيع، يتأرجح بين المودة والنفور. يهتز الخيط كثيرا، وتضيق المساحات وتتسع بين ساعة وأخرى.

يساعد عبد القوى أحيانا بحماس ويستقبله بود، وفجأة تبرد نظراته ويفتر كلامه. وقتها كان عبد القوى يتعجب لتقلباته، ويتفحص وجهه باحثا عن مساحة المودة المفقودة:

- كأنما يشغلك شىء يا خواجة عدلى.

يتفادى عدلى الكلام، ويكتفى بتحية فاترة.

عموما كان عدلى رجلا كتوما متحفظا. لم يره عبد القوى يبكى إلا ساعة موت أنجيل، لكنه عاد بعد دفنها لابتسامته المحايدة، كأن البكاء كان لحظة وانتهت. كان يحاول أن يتماسك لكن ذلك الحدث حفر خطوطا داكنة حول العينين، وأطفأ كبرياء النظرات.

لم ينتبه عدلى، لكن عبد القوى لاحظ التجاعيد والشيب، واضطراب حركة المنشّة، ووهن الخطى. يصادفه أحيانا وهو عائد مع كوكب من الكنيسة فى أماسى الآحاد، ويلاحظ ما لا يمكن الانتباه إليه فى الدكان.

- سعيدة يا خواجة.

يرفع عدلى عينيه ويحييه بذيل الحصان. يميل فى التفاتته، فتسنده كوكب من اليسار حتى لا يقع.

- سعيدة.

له أوقات يحلو فيها كلامه ويصفو، أوقات نادرة، تظهر فيها ثقافة خاصة وتأملات شخصية فى أمور السياسة والحياة. ينطلق فى الكلام، ثم يسكت فجأة ويطفىء السيجارة. ينسحب من الحديث كأن أفكاره انصرفت لشىء بعيد.

يشجعه عبد القوى على الاستمرار:

ـ كلامك مرتب، ومعلوماتك وافية، ما شاء الله.

يتجاهل عدلى التشجيع، ويرد ببرود وهو يتحسس صدره:

ـ تعبت من الكلام.

●●●

تجنب عبد القوى السياسة دائما عملا بنصيحة صهره نديم أفندى واتعاظا بنهايته، لكنها كانت أحيانا المساحة الوحيدة المتاحة للكلام مع عدلى. يستدرجه إلى الخلاف القديم بين حزب الوفد والكتلة الوفدية. المسألة بالنسبة لعبد القوى كلام، لكنها بالنسبة لعدلى مبدأ قديم يفرضه بحماس:

ـ مكرم عبيد هو الوفد الحقيقى، كشف ألاعيب الباشا النحاس الذى جاء للحكم على دبابات الإنجليز، وفضح فساد حزبه وحكومته فى الكتاب الأسود.

يصحح عبد القوى ترتيب الوقائع، ويعيد قراءتها على نحو مختلف:

ـ مكرم عبيد كان وزيرا للمالية فى الحكومة التى فرضها الإنجليز، والنحاس هو الذى طرده، وبعد أربع سنين رجع مكرم يبوس رأس النحاس ويلحس كل كلامه.

ـ أنت تحكم بالظواهر يا عبد القوى أفندى، وكلامك كلام موظفين لا يعرفون ألاعيب السياسة. الحقيقة أن النحاس فشل فى قيادة البلد وتركها فى الآخر للجيش.

يداهمه السكوت، فينطفئ:

- تعبت.

كلام فى الهواء.

كان زمن طويل انقضى منذ خصام مكرم والنحاس، وجرت أحداث أخرى أخطر شأنا، وأصبح الكلام عن الملك والإنجليز والأحزاب كلاما فى التاريخ وليس فى السياسة، كلاما فى الهواء.

الرجلان لم يتجاورا إلا فى سنة حرب بورسعيد، ولم يبدأ أى حوار بينهما إلا بعد سنوات، بعد أن اعتاد عدلى همومه القديمة: البيع والموت والظنون، وأصبح أكثر قدرة على مداراة نفوره من جاره الأرمل الشاب.

فى اللحظات النادرة، تلك الومضات القليلة جدا فى جلساتهما، كان عدلى يحدثه عن أشياء أخرى حميمة لنفسه: أسرار الأحجار ونقوش الفضة، آخر حدود البوح عنده.

مرة خلع السلسلة الفضية وأراه حجر الدم المعلق دائما فى رقبته تحت الفانلة، ثم قلب أوراق كتاب قديم، ولخّص الكلام:

- يمنع النزف.

تفحص عبد القوى الحجر الأخضر، ذا البقع الدموية المتناثرة بلا نظام، وواصل عدلى الشرح:

- لا يعرف أسراره إلا القسس والرهبان، هم أعرف الناس به، ويحفظونه فى الكنائس والأديرة. راسبوتين عالج به ابن القيصر من سيولة الدم، وأنا شخصيا أستفيد به فى علاج البواسير، تعليقه على الجلد يمنع نزف الشروخ.

مرات طلب منه عبد القوى أن يبحث له عن قطعة من الفيروز، يضعها فى

الخاتم القديم بدلا من الفص الذى ضاع منه فى قطار السويس. وعده عدلى مرات، لكن فى آخر مرة نفخ فى وجهه:

- وأين أجد الفيروز الحر الآن يا عبد القوى أفندى؟.. الفصوص الزرقاء الموجودة الآن إما بلاستيك أو زجاج. الفيروز الإيراني غير موجود، والفيروز المصرى فى سيناء، وسيناء عند اليهود، والحصان فى الخزانة، والخزانة عاوزه سلم، والسلم عند النجار، والنجار عاوز مسمار؛ من أين يا عبدالقوى أفندى؟!

انقطع نفسُه فجأة، وانطفأ الكلام:

- تعبْت.

كثرت كلمة "تعبت" على لسان عدلى، سنة بعد سنة تزيد، وفى الآخر قال له الطبيب:

- القلب، الحركة الآن خطر على حياتك.

لم يعرف أحد شيئا عن مرضه إلا بعد أن ترك الدكان للصاوى. رقد على السرير وأعطى الفلوس لكوكب، ثم صارحها بحاله، وقال لها:

- كان أملى أن أعيش حتى أفرح بك وأشوف أولادك يا كوكب، لكن مشيئة ربنا فوق كل إرادة.

●●●

تحت؛ كان الصاوى وسط أولاده وعماله، يخلعون الواجهة الزجاجية، ويثبِّتون اللافتة الجديدة فوق الدكان؛ " فواكه العبور".

شمر وساعد أولاده بحذر فى حمل الزجاج البلجيكى، لكن حذره لم يمنع كسر الزّجاج. شطر الكسر الشعار القديم المكتوب بماء الذهب" : الدين المعاملة"، وجرح يده.

قطع الصاوى من شاله وربط جرحه، ولام ولده الأصغر:

- لماذا التسرع يا تيمور، كسرت الزجاج.

- كل شيء له ثمن يا معلم، والسرعة مطلوبة.

- حتى لو جرحت أباك؟!

- ولو ذبحت أمى.

- الله يلعنك، ويلعن سلفك وخلفك.

رغم الدم والكلام الخشن واللعنات كانت الوجوه مبتسمة، والصاوى سعيدا بأولاده ودكانه.

●●●

بدأ الصاوى بائعا سريحا، يشترى الفاكهة بالجملة من سوق الظاهر، ويبيع بالأقّة على عربته الخشبية فى شوارع العباسية. يبيع أجود الأصناف دائما، ويرمى الحبة الفاسدة بيده. لا يغش فى الميزان، ولا يغالط فى حساب.

تتدلى السلال من شبابيك الهوانم، وتتوثب أعجازهن خلف الجدران:

- ولد يا صاوى؛ أقة عنب.

يزن ويزيد الميزان، ويتابع الحبل المسحوب متغنيا بالنداء المشهور:

- "يا بيض حمام ويمام، غنّى عليه كروان ونام، يا عنب".

صوته جميل فيه طراوة أهل ريف المنيا، وله عينان خضراوان نادرتان بين أهل الصعيد، وشارب مبروم، ومركوب، وجلباب وشال نظيفان.

تترقبه أنجيل خاصة فى موسم المنجة، فاكهتها المحببة، عشقُها وسر آلامها. من أول مرة اصطاد قلبها بفاكهتها المفضلة، المنجة العويس.

- تعال بُكْرة يا صاوى، كل يوم.

جملة عابرة، مثل تلك الكلمات التى يقولها الناس دون أن يعنوا بها أى شىء، لكن يصادف أن يكون لها أحيانا وقع القدر، تصنع مصائر كبيرة.

هو عرف طلبها، ينتقى لها أجود حبات المنجة العويس من أول الصباح، ويخفيها فى قفص صغير فى بطن العربة. يدور دورته المعتادة، ويركن قبالة دكان عدلى، وإذا تأخرت فى فتح الشرفة ينبهها بنداء مخصوص:

- إيش شعلقك يا عويس فى حبال الهوانم.

لم يسمح له عدلى أبدا أن يركن عربته على رصيف بيته. يقف دائما على الرصيف المقابل، يركن ويعبر الشارع ليضع المنجة فى السلة، ويأخذ الثمن من عدلى، ثم يعود إلى عربته متابعا السلة المتأرجحة بغناء جميل:

- "ادلّع يا عويس فى حبال الهوانم".

●●●

كان عدلى بعيد النظر فى رفضه، فبعد فترة استقر الصاوى فى مكانه على الرصيف المقابل، ربطه شئ ما بالمكان. زحف أقاربه وبلدياته بعده بأقفاص الفاكهة والخضروات، احتلوا ظلال الجدران، وانتشروا فى الحارات المتفرعة من الشارع، وسدوا مداخل البيوت أحيانا. بمرور الوقت أصبح لكل واحد منهم مكان معلوم، وظل الصاوى فى موقعه الأول المختار.

أضفى وجودهم مع المخبز البلدى ومطعم الفول والطعمية القديمين لمسة شعبية على المنطقة.

تناثرت الفضلات على أرض الشارع، وطيرها الهواء من رصيف إلى رصيف. لكن الصاوى كان حريصا على تنظيف المكان، خاصة رصيف بيت عدلى. رتب للباعة أدوارا للقيام بهذه المهمة، وتابع التنفيذ بنفسه.

واضح أنه رغم صغر سنه كان صاحب كلمة على الكل، وربما كانت البضاعة بضاعته.

تزعج حركة الباعة صنّارة، فيراقبهم من داخل المحل بنظرات قلقة، وبعد أن ينتهوا من عملهم يبدأ عمله الإشرافى، يضفى لمسته الخاصة على كل ما عملوه، يعيد الكنس والرش أمام الدكان، ثم يتدلّى فكُّه السفلى، وتبرق عيناه بابتسامة عجيبة للخواجة عدلى.

يراقب عدلى الموقف كله بفتور وحياد فلديه ما يشغله: آلام الكلى التى توقظ أنجيل فى الليل وتطرحها على الأرض فى النهار. احتمالات الجراحة الخطيرة، والمصاريف، وطلبات البنت والولد، وفكرة بيع البيت. لم يهتم بأى شىء آخر، حتى أخبار الحرب فى بورسعيد.

منع القهوة، وحرّم دخول الملوحة والفسيخ البيت، حرّم المنجة أيضا، وقال لأنجيل:

- الطبيب حذّر: كل حبة بعذاب شهر.

أطرقت خجلى من رغبات النفس.

الصاوى لاحظ أنها لم تعد تطلب المنجة. لم يهتم بتفسير الأمر، لكنه كان يدس لها أحيانا حبات من الفاكهة المحرمة هدية مخفية وسط العنب أو التين. مرات تجرأ وطلع، غافل الجميع وطلع. هى كانت ترتعد، تمص الرحيق الحلو فى السر وترتعد.

●●●

فى الشتاء زادت آلام أنجيل، وزادت هموم عدلى أيضا. باع البيت لبسيونى، وزاحمه فى الطابق العلوى ذلك الأرمل الشاب اللحوح، الذى طارده طويلا قبل أن يبيع البيت ليستأجر الشقة المجاورة. كان يسميه فى ذلك الوقت" :عبد مش عارف إيه أفندى".

يخفف عدلى آلام أنجيل بقربة ماء ساخن، ويسكّنها الطبيب بالحقن،

لكنها ظلت تزداد ذبولا، تنكمش وتتجعد للداخل، وتزرق، وتتوجع:

- كليتى تخنقنى.

فى ليل ربيع تنبّه عدلى على صوت المسحراتى، فوجدها جالسة تبكى فى هدوء. تحسس آلامها، ولعن المسحراتى الذى أرّق النيام بطبله، لكنها قالت:

- ربما أيقظك أنت، لكننى صاحية من أول الليل.

ثم أطرقت وقالت له بلهجة صعيدية، لهجة الزمان الأول:

- سامحنى يا بو الولد والبنت.

- سامحينى أنت لو غفلت عينى، وقصَّرت عن خدمتك.

- الحقيقة لا بخلت ولا قصَّرت، سامحنى أنتَ.

- على أى شىء أسامحك؟!

- العين ما تسلم من الخطية، والقلب ما يخلو من الوسواس، والسهو مكتوب على القلوب ومقدّر.

وعدها أن يأتى لها بالقسيس زاخر فى الصباح، أو يصحبها إلى الكنيسة لو كانت حالتها أحسن.

قبّلت ظهر كفه، وبكت بحرقة:

- ما ينصفنى أمام ربى غيرك، سامحنى يابو الولد والبنت.

أعطاها المنوّم، وهرب من الكلام.

تلك، كانت الليلة التى طرق فيها عدلى باب جاره عبد القوى للمرة الأولى، وطلب منه سيجارة بحارى وقال له:

- هواء برمودة يولّد الظنون.

●●●

باب البيت على الواجهة الأخرى، بعيدا عن السوق. ولهذا لم يعرف

الصاوى مصاب عدلى إلا بعد أيام. لاحظ انغلاق الدكان لكنه لم يعرف أن أنجيل ماتت إلا بعد أن أخبره بسيونى مالك البيت الجديد، عرف بأمور المرض والبيع والموت فى لحظة واحدة.

استثقل الهمَّ على الرجل، وطلب الرحمة للميتة:

ـ كانت كاملة فى كل شىء.

عاد عدلى وفتح الدكان، لكن الصاوى ظل أياما لا يقدر على تأدية واجب العزاء.

يوم، يومان، ثلاثة، ومرّ عازف الربابة قبل إفطار رمضان، يمدح النبى ويبشر المسلمين الصائمين بفرحة العيد. حول معْصمه خيط طويل، فى آخره بالونة حمراء ترقص فوق رأسه مع دق الوتر.

رآه الصاوى على باب دكان عدلى، فعبر إليه ونهره:

ـ يابو الغناوى لسانك غشيم ووترك عديم النظر، قلب الخواجة راقد على جرح موت، وكلامك لا يناسب حاله.

طرد الصاوى العازف، قطع الخيط وطيّر البالونة، ثم مد يده لعدلى:

ـ وجعك فى قلبى يا خواجة، ولو عز عليك البكاء أبكى لك بعينى.

طأطأ عدلى وفكّر فى الكلام، ثم غالب ظنونه ودمعته وواجهه:

ـ كل شىء بالمشيئة، حتى الخطيّة بالمشيئة يا صاوى.

●●●

قال الجملة نفسها بعد عشرين سنة، حين تنازل له عن الدكان:

ـ كل شىء بالمشيئة يا صاوى.

طأطأ الصاوى وفكّر فى الكلام القديم، وهو يسند عدلى إلى مدخل البيت. أسنده حتى وضع رجله على أول السلم، ورجع.

ظل دخول شقة عدلى صعبا على جاره عبد القوى حتى فى سنة رقاد المرض. كان يسمع صوته فيحجزه عند الباب بصوت واهن:

ـ أنا جاى يا كوكب.

يمد رجلا خارج الشقة، ويسدُّ فتحة الباب بمنكبيه ليحجب الحوائط الكالحة والأثاث القديم.

ـ خيرا يا عبد القوى أفندى.

ـ أردت أن أطمئن عليك يا خواجة.

ـ تعيش، وتسأل عن أحبابك دائما.

ـ لا أعرف ماذا يمكن أن أفعل من أجلك، الجار للجار.

ـ وماذا يفعل الطبيب نفسه، النوم وقلة الكلام علاج القلب التعبان.

ويكرر الشكر:

ـ تعيش، وتسأل.

مرة دخل عبد القوى، فتحت كوكب الباب وسبقته إلى سرير الراقد:

ـ لا أعرف ما به، يفتح عينه ويقفلها كأنه لا يحس بما حوله.

دخل عبد القوى مترددا كأنه يمشى على شوك. تركته كوكب على كرسى جنب السرير، وذهبت إلى المطبخ تكمل عصر الليمون. كان يسمع خبط الملعقة فى جنبات الدورق الزجاجى ويترقب عودتها، وكلما فتَح عدلى عينه

وقف عبد القوى وبرر وجوده جنبه:

- سلامتك، أردت أن أطمئن عليك.

واضح أن دماغ عدلى لم يستقبل الكلام، لم ينتبه إلا بعد أن سندته كوكب وهى تدس قرص الدواء تحت لسانه وتسقيه العصير. فتح عينه وسأل:

- من؟

- عبد القوى أفندى، أراد أن يطمئن عليك بنفسه يا بابا.

- الآن أريد أن أنام يا كوكب، وهو أيضا عنده ما يشغله، يكفيه هم حفيده، ربنا يساعده.

لم يوجه كلمة لضيفه، لكن عبد القوى بلع حرجه، وجلس جنبه على السرير:

- لا يشغلنى أى شىء عنك، وأتمنى أن أساعدك. أى شىء تريده من وزارة الصحة أقدر عليه، دواء، طبيب، مستشفى، الجار للجار.

- خير ربنا بزيادة، نشكره.

أدرك عبد القوى أن هذا الطريق مسدود، فاستدار للطرق السالكة:

- سيناء سترجع لنا.

- خلاص؟

- خلاص، سترجع كلها، وترجع كنوز الفيروز لنا.

- المهم أن يصدقوا.

- كارتر ضامن.

- الأهم أن نحافظ عليها.

- يوم تعود يا خواجة، سأصحبك فى تاكسى مخصوص، تزور دير

سانت كاترين، وتختار لى بنفسك فصا من الفيروز أضعه فى الخاتم القديم.

- وما المقابل؟

تحيّر عبد القوى فى فهم الكلام، تلعثم وهو يرد:

- فقط تختار لى فص الفيروز.

- لا أقصدك أنت، قصدى ماذا سيأخذون، وماذا سيأخذ كارتر؟

- لا شئ، السلام، وكل واحد فى حاله.

- ربما.

طوال الكلام ووجه عدلى للناحية الأخرى. ولّى قفاه للجار والجدران الكالحة والأثاث القديم، واستقرت نظرته فى الشقّ الأزرق بين ضلفتى الشيش، لحظات ما قبل الغروب.

نام مع خفوت الشعاع.

كانت كوكب فى الصالة جنب التليفون، انتبهت لخروج عبد القوى فرزعت السماعة واشتكت:

- الخطوط عطلانة، منذ ساعة وأنا أحاول الاتصال بالطبيب أو بوليم، لاأدرى ماذا سأفعل إذا احتجته فى ليل أو نهار.

أيام مرض عدلى، ظل صنّارة يدور حول البيت، دون أن يجسر على الطلوع. كان عبد القوى يصادفه أحيانا نائما فى مدخل البيت، وقد أسند ظهره لجدار، ورأسه يتدلى فى حجره متأرجحا فى رقبته النحيلة الطويلة.

يهزه عبد القوى فينتبه على مهل، ويجاهد وهو يرفع رقبته. وحين تنتصب، يجاهد مرة أخرى ليحرك قاعدة فكه السفلى ويسأله:

- أهو بخير؟

- لماذا لا تصعد وتسأل بنفسك، سيسرّ الخواجة أن تفعل ذلك.

- لا أستطيع، هو لا يسمح لى بذلك.

●●●

راقب صنّارة صامتا التعديلات التى يجريها العمال داخل الدكان، والحركة الجديدة التى تدب حوله. عبر الباعة بأقفاصهم من الرصيف المقابل، وظهرت وجوه جديدة، تمدد السوق على جانبى الشارع.

فى النهاية استقرت بضاعة الصاوى أمام الدكان، واستقر هو داخله يدير الحركة. احتفظ بمكتب عدلى القديم، واحتفظ أيضا بعربته القديمة تذكارا لأيام الجهد والتعب فى شوارع العباسية. ظلت فى مكانها القديم، وأجّرها بائع كشرى فى النهاية.

زاحم صنّارة الباعة على المكان بإصرار، جلس صامتا على الرصيف

قرب الدكان، ودفع بكوعه الأقفاص الزاحفة حوله. كان يحس أنه صاحب حقّ تاريخيّ فى المكان.

هَمّ أكثر من مرة أن يصعد للخواجة عدلى ليخبره بما يفعلون، لكنه تراجع على أول درجة فى السلم. كان خائفا وعاتبا أيضا، طلع الخواجة فوق ونسيه، لم يهتم بأمره، كأنه منذور دائما للنسيان.

●●●

يمشى صنّارة فى شوارع العباسية، والأشجار خلفه، تبرق عيناه وهو يحاول أن يتذكر الاسم الأول، الصوت الأول، المكان الأول. وحين يعجز عن التذكر، يتدلى فكه الأسفل فى يأس، وتنطفىء عيناه.

يدور ويعود للسوق حين يتعب. يدسُّ نفسه بين أقفاص الباعة، ويجلس متحديا الجميع. وحين يجوع يمد يده لأقرب قفص ويأكل: خيارة، فجلة، حبة جوافة، أى شىء جنبه.

وكان لابد أن يضربه أحدهم ذات يوم.

شنَّت الحربَ امرأة بصوت رجل وصدر لا يقل ضخامة عن مؤخرتها. ضبطت يد صنّارة فى بضاعتها، فلطمته وسحبته من رأسه بقفص فارغ مثل حيوان فى الأسْر. سحبته وسط السوق، وتولى آخرون جلد مؤخرته.

سمع الصاوى الجلبة، فمط رقبته وسأل:

- ماذا يجرى؟

- يضربون صنّارة الأهبل.

- ولماذا يضربونه؟

يزاحمهم فى المكان، ويأكل من بضاعتهم بلا مقابل.

تحرك الصاوى بنفسه لإنقاذ صنّارة من أسر القفص، بسط يده على كتفيه وسأله بمودة:

- لماذا تضايقهم؟

- يحاولون طردى من مكانى.

- الآن المكان مكانهم، والدنيا دنياهم، حاول أن تعيش بينهم، وأن تكسب ودهم.

وحذّره وهو يطعمه:

- سايسهم تكسب، لو أغضبتهم مرة أخرى فقد لا أستطيع إنقاذك من أيديهم.

●●●

أطلق الصاوى على أولاده أسماء أصناف المنجة، تجارته المفضلة، عويس، وهندى، وتيمور. أعجبته فكرة أن يعتبر صنّارة ابنا غير شرعى، اسمه يطلق أيضا على صنف من أصناف المنجة، اعتبره صنفا جديدا بين أولاده؛ صنّارة.

كانت فكرة أن يتبنى رجلا فى عمر أبيه مضحكة، ضحك أولاده للنكتة أثناء العشاء السريع فوق المكتب، ثم رموا بقاياهم لصنّارة، وقال له أحدهم:

- كل يا ابن الحرام.

لاحظوا فيما بعد أنه حين يشبع يتكبر، يتجاهل نداءاتهم، ويسند ظهره إلى جدار الدكان، غارقا فى تأملاته البلهاء. قالوا لأبيهم:

- الأهبل؛ ابن الحرام لا يطاوعنا، يظن أنه أصبح واحدا منا.

نصحهم الصاوى:

- لقمة بلقمة، عاملوه بحكمة بحيث لا يجوع ولا يشبع، وبهذا يظل الحبل فى أيديكم، الجوع كفر، والشبع بطر.

حين مات عدلى، زحف صنّارة مرة أخرى إلى الفناء المكشوف بين الشقتين كان أكثر جرأة، لكنه كان أيضا أكثر وهنا، ربما بفعل السن والحزن وحر أغسطس والتعب.

وجده عبد القوى وهو عائد مع حفيده بعد صلاة العشاء، فنقر صلعته وسأله:

- ماذا تفعل هنا يا صنّارة؟

- كنت أحرس الشقتين، ظننتك سافرت مع الآنسة كوكة.

قام، نفض ملابسه وتأهب للنزول، لكنه تلكأ ليصارحه بأفكاره:

- أعتقد أنه أصبح واجبا على أن أقيم فى هذا الفناء، لتجدنى الآنسة كوكة قريبا منها فى أى وقت، ألا يجب أن أفعل ذلك؟

- ولماذا تعطّل نفسك يا صنّارة؟!.. أنت الآن تعمل مع الصاوى فلا تعطّل نفسك. وكوكب لن تسمح لك أن تقيم هنا، ولن يسمح الجيران، ولا صاحب البيت.

- لكنى لا أريد أن استمر مع الصاوى، أولاده يركلوننى، ويرمون فضلاتهم فى فمى، ينتهزون فرصة نومى ويسخرون منى.

- دعك من أولاده، واكسب قلب الصاوى نفسه. اخدمه بإخلاص كما كنت تخدم عدلى، وسيحميك من أولاده.

- لا تصفنى بهذه الصفة القبيحة يا عم عبد القوى، لست خادما لأحد.

رفض بإباء طبق الخضار الذى قدمه له عبد القوى، وواصل الاحتجاج:

- صنّارة ليس خادما، ولا متسولا.

وعاتبه بغضب:

- ألم يخبرك أحد أن صنّارة نجار لا يباريه أمهر النجارين فى الشغل؟..

الكل يعرفون أننى كنت الساعد الأيمن لعدلى فى ورشة النجارة. كنت رئيسا على كل العمال، وعندما ترك الخواجة الورشة وعاد لدكان الفضة صمم أن أظل معه، هجرْتُ صنعتى لأجله وبقيت معه.

وتحسّر على الأيام الضائعة:

- كان يعاملنى مثل أخ، يسمعنى باهتمام، ويقرأ علىَّ من كتابه.

- أى كتاب يا صنّارة؟

- كتاب كبير، كان يحفظه فى درج المكتب. يقرأ منه فى الليل. ويقول: "هذا كتاب الرب، وكل شىء مكتوب فيه". كنت أتعجب وأسأله: "كل شىء؟"!.. فيقول: "كل شىء، من أول الأيام حتى آخرها".

وسأل صنّارة عبد القوى:

- هل صحيح ما قاله عن كتابه يا عم عبد القوى؟

- ربما يا صنّارة.

- وماذا يمكن أن يكتبوا عن شخص مثلى؟. وبأى الأسماء يسموننى؟

ظل فكه السفلى متدليا فى انتظار الإجابة.

ebooks4arabs.blogspot.com

أسندت كوكب ظهرها إلى صدر السرير، وتلمست قدماها دفء الغطاء. بللت حلقها برشفة نبيذ وخشعت للرب عريس القيامة الذى أظهر معجزته فى مثل هذا اليوم من شهر طوبة فى عرس قانا، وروى عطش الجميع بكأس واحدة من كرمته السماوية.

تذكرت أن اليوم يوافق أيضا ذكرى استشهاد العذارى الأربعين مع القديسة دميانة، وحاولت أن تستكشف المعنى المستور فى توافقات الأيام.

كانت تتأهّب للنوم وهى تغوص فى تأملاتها وصلواتها حين تفجَّر الرعد فى أرجاء السماوات:

- كن كن.. كون.. كن كون..

استعادت خوفها فى ذلك المساء البعيد، مساء الزلزال. الخوف الذى سكنها منذ ذلك الحين، تسربت جذوره بين التجاعيد وتناثرت زهوره الكالحة فى الرأس. الآن تخزُّها الجذور الشوكية مع الدوىّ المفاجئ، تدمى أعماقها.

أعجزها الخوف عن أن تنهض. تخيلت الأشكال الغريبة التى تسكن السحب البارقة، وتسمَّعت تسرب المطر فى شقوق الجدران.

مساء الزلزال أيضا لم تنهض من مكانها. كانت تمسح مدخل الشقة حين سحبت الهزّة خطاها وكومتها خلف الباب. انغرزت جذور الشوك فى أحشائها وهى ترى المصباح يتأرجح فى السلك الطويل، وتسمع خبط شيش الشرفة فى الجدار.

لم تفهم ما يحدث لكنها أيقنت بالخطر. رسمت علامة الصليب على صدرها، وأغمضت عينيها على رجاء" :يا رب ارحم".

فهمت حين سمعت عبد القوى يهرول على السلم، ونصر يصرخ أمامه منبها الجيران:

- زلزال..

المفتاح فى الباب على امتداد يدها، لكنها لم تستطع أن تتحرك من مكانها، كانت تبكى فى صمت. ظلت طويلا.

سمعت صوت عبد القوى وهو عائد مع حفيده فانتحبت. سمعَها هو فرنّ الجرس وسأل من خلف الباب:

- هل أنت بخير يا ست الناظرة.

طال الموقف، فقال لحفيده:

- هات سكينا.

أزاح رفاص الكالون بالسكين من الخارج. هز الباب، لكنه ظل مغلقا حتى فتحت هى بالمفتاح. طمأنها:

- انتهى، والحمد الله.

- وحدى، وقعت وكدت أموت وحدى.

هى كانت عاتبة، وهو ناول السكين لحفيده واعتذر لها:

- ظننتُك جرَيتِ قبلنا. نصر أربكنى، نط وصرخ ولخبط أفكارى.

أخبرها أن الناس ما زالوا فى الشوارع خائفين. وشجعها وشجع نفسه:

- لا أدرى مما يخافون، العمر واحد والرب واحد.

ثم ابتسم وراجع نفسه:

- صحيح، الحياة حلوة.

انسحب الحفيد، عاد للشقة، وهو يتلفت نحو كوكب ويتحسس حد السكين. كان يتذكر اللسعة القديمة، لسعة الخيرزانة.

تلكأ عبد القوى أمام الباب.

هو على المعاش منذ أربع سنوات، يتساند على عصا سوداء، ويضم كتفيه حول عنقه إلى الأمام. هى أمامها ست سنوات قبل المعاش. أحيانا تحسب المدة باليوم، وتتوجع من الوحدة المنتظرة.

لم ينصرف عبد القوى إلا بعد أن هدأت كوكب وشكرته:

- أقلقتك، متشكرة.

فى الليل انفتح البابان فى لحظة واحدة. ضحك عبد القوى وطمأنها:

- لا تخافى، توابع صغيرة، الزلزال الكبير انتهى.

ضحكت متظاهرة بالسخرية من مخاوفها، استدارت بسرعة وأغلقت الباب.

تقريبا، لم تنم فى تلك الليلة.

فى الصباح اتصلت بوليم:

- سلامتك يا وليم، الأولاد بخير؟

- بخير يا أختي، تعيشى وتسألى عن أحبابك.

واعتذر لها:

- التليفونات كانت عطلانة، حاولت كثيرا. فكرت أن أحضر إليك لكن خوف الأولاد منعنى.

- لا تتعب نفسك، يكفينى صوتك فى الدنيا.

أسندت خدها على السماعة السوداء، وهو يحدثها عن مشاغله فى البيت

ومشاكله فى الشغل، ويحملها هموم الكون:

- دنيا بلا طعم يا كوكب ولا أحد يدرى بحال غيره، الناس أصبحوا مثل الأحجار المخلعة، تتدحرج فى الشوارع بلا نظام وتخبط بعضها.

- "ناس عايشه وناس لايصة"، حكمة ربنا.

- الحياة شريان واحد يا أختى، والدم الذى يسرى هنا يسرى هناك. عندى مثل ما عندك، وعند غيرنا مثل ما عندنا.

- عندك أولادك، ربنا يسعدك بهم.

●●●

صادفت عبد القوى فى الصباح وهى ذاهبة إلى المدرسة. كان يتدحرج فى مدخل البيت وهو يتصفح جريدة الأهرام متتبعا أخبار الزلزال:

- بيوت كثيرة وقعت.

- ربنا يرأف بأحبابه.

أحيانا تصادفه فى طريق الكنيسة أو المدرسة. يتوقف ليحييها ويسألها عن أحوالها، ويشكو أفعال حفيده وملل المعاش، وهى تطوى راحتها على منديل ورقى، وتمسح أنفها بين جملة وأخرى.

نصحته مرة أن يبحث عن عمل، فبدد نصيحتها بمرارة:

- وماذا أعمل؟!.. خبرتى كلها فى الدواوين، أفندى لا خبرة لى بالمحاكم.

كل مرة سلام وكلام سريع وبعدها" :سعيدة".

بدأ الأمر أحيانا كأنه يترقبها، يضع أذنه على حركتها فى البيت، يفاجئها بإضاءة نور بابه وهى طالعة أو نازلة فى المساء. أحيانا يفتح الباب ويحييها. كانت تبدى نفورها فى البداية، لكنها اعتادته مع مرور الوقت.

بدّل عبد القوى مصباح بابها المحروق بآخر سليم، فعل ذلك فى غيابها،

ثم أخبرها بذلك ورفض أن يأخذ ثمن المصباح، وهى أصرّت:

ـ ولماذا لا أدفع؟.. يكفى أنك أتعبت نفسك.

ـ الجار للجار.

ـ لكن الحق حق.

أصرت ودفعت، لكنها نسيت المصباح الجديد، اعتادت تحية جارها المضيئة، ربما أصبحت تترقبها. أحيانا، كانت هناك وقفات فى الفناء المكشوف، هو على بابه وهى على بابها.

استفادت كثيرا من خبراته ومعلوماته أيام خروجها للمعاش، شرح لها كل شئ بدقة، الإجراءات والحسابات.

●●●

هو الذى نبهها للأمر الخطير:

ـ بسيونى يسعى لطردنا من البيت.

ـ حاول معى زمان لكننى رفضت، رميت فلوسه وزعقت" :انس يا بسيونى".

ـ وحاول معى أيضا بالفلوس، لكن الأمر مختلف الآن، يسعى للحصول عل قرار بإزالة البيت.

ـ كيف عرفت؟

ـ قبل ساعة جاء ومعه لجنة لمعاينة الشروخ.

ـ السكان عرفوا؟

ـ الدور الأول خال كما تعرفين، سكانه قبضوا ورحلوا قبل الزلزال. سكان الدور الثانى لا يقيمون أصلا، هم أصحاب محلات وعمارات ويستخدمون الشقق كمخازن، لا يهمهم أمر البيت.

- والصاوى؟

- ماسك الدكان بيديه وأسنانه، وقاعد للبيت، يريد أن يشتريه. الصاوى عرض على بسيونى ثلاثمائة وخمسين ألفا، وتيمور ابن الصاوى يريد البيت لنفسه، عرض خمسمائة، ولو اشتراه سيعاملنا بقسوة ويرمينا فى الشارع.

- ابن الصاوى ينافس أباه، وقادر على دفع نصف مليون؟!

- البيت يساوى الكثير، وتيمور قادر على أكثر من مليون.

- ربنا يسامح بابا؛ باع البيت بثلاثة آلاف.

وراجعت نفسها:

- ربنا يرحمه.

واجه عبد القوى قرار الإزالة بعناد ساخر. كانت كوكب تحس أحيانا أنه يريد أن يخفف عنها، خاصة بعد خروجها للمعاش.

حكى لها عن صهره نديم أفندى، وكيف دبّر له الوظيفة بحماس، ونصحه بلزوم السلك الحكومى مبشرا بقدوم عصر الأفندية. قال لها:

- نفخت نفسى أربعين سنة بألقاب الأفندى والأستاذ وسعادة البيه المدير، لم أحس بالخازوق إلا يوم خروجى للمعاش، نظرت فى المرآة وقلت لنفسى : طظ فى الأفندى. لو كنت سرحت فى الشوارع بعربة حرنكش أو جميز لأصبح حالى أحسن.

لاحظت كوكب أنه أصبح أقل تحفظا فى كلامه، ولا يدقق فى اختيار ألفاظه. كانت تنفر بوجهها بعيدا وتبلع ابتسامتها.

لاحظت أيضا أن مظهره تغير، كثر ظهوره فى الشارع بالجلابية والشبشب، وتقوست ساقاه.

هو أيضا كانت له ملاحظات.

نصحها مرة أن تغير اللون الأسود فى ملابسها، وأن تكثر من زيارة أحبابها. تكلّم متلعثما، وهى خجلت من الكلام. تفادت سيرة وليم، وقالت له:

ـ عائلتنا كبيرة فى أسيوط، لكنى لا أعرف أهلى هناك، لا أتذكر حتى وجوههم.

ـ وأنا أيضا، قاطعنى أهلى منذ انتحار صهرى أبو الغالية.

ـ ولماذا انتحر؟

ـ أظنه كان كافرا، الكفر حكم بالإعدام على الحياة كلها.

ـ يا رب ارحم، ولماذا كفر؟

ـ فقد المحبة. أظن أن الإيمان يبدأ بمحبة الناس، وهو كره الجميع، احتقرهم.

رسمت علامة الصليب على صدرها وخشعت:

ـ الله محبة.

وسألته :

ـ وأنت يا عبد القوى أفندى؟

تحسس علامة الصلاة فى جبينه وطأطأ:

ـ الحمد الله.

●●●

ليلتها خشعت كوكب أمام الراعى الصالح وتوسلت:

ـ يا رب؛ لا تدخلنى فى تجربة، واقبلنى فى ملكوتك بصحبة العذارى الطاهرات. يارب هبنى أن أتعلم من القديسة دميانة الحكمة والطهارة والشهادة لاسمك القدوس.

رنَّ جرس الباب. اختلط صوته بالرعد طويلا قبل أن تميزه أذن كوكب:

ـ من؟

ـ أنا نصر.

اصفرَّت ونفرت خلف الشرّاعة المغلقة:

ـ إيه يا نصر، عيب ان تطرق بابى فى هذا الوقت.

ـ أسأل عن جدى.

ـ وماذا يفعل جدك عندى فى هذا الوقت، هو أو غيره، عيب.

ـ لم يعد حتى الآن.

تركته معلقا تحت المطر بلا جواب، هى لا تستطيع أن تخمن كيف يفكر، دائما تستريب.

راقبته من شق الباب حتى انصرف، وعلقت على الموقف بحدة:

ـ قلة نوق.

تمنت أن يسمع.

يشبه جده قبل أن ينزع الزمان أسلحته وتتقوس ساقاه. يشبهه، وفى مثل سنه تقريبا يوم سكن الشقة، لكنه يختلف عنه فى أشياء كثيرة بعد ذلك.

كانت لعبد القوى خطوة متئدة ونظرة هادئة. خطى نصر مضطربة، ويتلفت كثيرا. تبدو نظراته أحيانا جارحة، ربما تائهة.

لا تخفى أنها قلقة على عبد القوى. زمان كانت بينهما قطيعة طويلة، شبه قطيعة، الآن تحس أن الشروخ قاربت بينهما. عموما الجار للجار، لكنها لم تكن تستطيع أن تكلم الولد بلهجة أحسن، لا ترتاح له، تلين مرة وتنفر مرة. تعرف أنه يسخر منها، سمعت أحيانا فلتات كلام وهى طالعة أو نازلة.

عادت لجلستها المعهودة فى السرير وتناولت الكتاب المقدس. هذا المرة فضلّت أن تفتح الكتاب بلا قصد. وتقرأ أول صفحة تصادفها ربما كانت تبحث عن فأل. قرأت :

- "اذكر خالقك فى أيام شبابك قبل أن تأتى أيام الشر أو تجىء السنون إذ تقول ليس لى فيها سرور. قبل ما تظلم الشمس والنور والقمر والنجوم وترجع السحب بعد المطر."

رفرفت نظراتها فوق الكلام، وعادت تقرأ:

- "النور حلو وخير للعينين أن تنظرا الشمس لأنه إن عاش الإنسان سنين كثيرة فليفرح فيها كلها."

خلف حروف الكتابة تغريدُ بلبل، وهَبَ دمه لشجرة الحياة، وغرز شوكتها فى قلبه. صوت لا تقدر على تدوينه الأقلام، نغم خالص .

●●●

سحبت كوكب الخيط الأحمر القديم، لمّت الغرز المنفرطة بسن الإبرة، وواصلت النسج، هذه المرة كانت تتمنى أن تتم العمل.

لف نصر الوسادة حول أذنيه، وغالب صوت الرعد. يذكّره الدوىُّ باللحظة التى حدثه عنها جدّه، فرصة الحياة النادرة تحت أنقاض السويس. فى هدأة الرعد يطفو صوت المنبه القديم "تك.. تك.. تك". كل تكّة تقترب به من اللحظة المحتومة، السفر.

أضجره الصوت، وأرّقه كلام كوكب. لا يعرف لماذا عاملته بهذا الجفاء بعد كلامها اللطيف فى أول الليل. لم تقدِّر قلقه على جدّه، ولم تراع أنه مسافر فى الصباح.

مرات كثيرة فكر أن يضايقها، أن يرد بحدة، لكنه كان يخشى غضب جده.

يعرف أنها كانت تتلصص عليه دائما، وهو كان يتعمد أحيانا أن يسهل لها المهمة، ويترقب رد الفعل فى نظرات جده.

دبر لها مرة حكاية مضحكة وضعتها فى حرج، سجل أصوات مشاهد غرامية من تمثيليات مختلفة، اختار أسخن المواقف وأعد التسجيل على مهل. ترك مساحة صامتة فى بداية الشريط وأجرى عمليات مونتاج بصوته، ثم وضع سماعة الكاسيت أمام الشرخ النافذ بين الشقتين.

تعمد أن يشغل الشريط فى وقت يكون فيه بصحبة جده خارج البيت. تلكأ فى الشقة وضغط الزر، ثم انسل وتبع جدهِ على السلم. تعمّد أيضا فى

العودة أن يترك جده على باب البيت ويتأخر فى الشارع قليلا. حين طلع كانت المناقشة حامية، جده يحلف:

- يا ست الناظرة الولد كان معى، صدقينى.

وهى تشخط:

- لا تكذبنى يا عبد القوى أفندى، سمعت صوته وصوتها بأذنى ربع ساعة، ضحك ومرقعة وكلام فارغ؛ قلة أدب.

وتتحداه:

- افتح الشقة وسترى.

طلع نصر بهدوء وحياها بحياد كأنه لم يسمع اسمه من لسانها. فاجأها فاصفرت واحمرت وانخرست، ثم دخلت ورزعت الباب.

لم يعرف أحد أسرار الحكاية حتى الآن، لكن المياه عادت لمجاريها بعد فترة بين كوكب وعبد القوى، ربما بفعل الملل، وربما اختلطت التفاصيل والتوقيتات فأصبح أى شئ قابلا للتصديق.

●●●

ناوش جده كثيرا أيضا. كان يترقب عودته من ثرثرة الباب المضىء، ويشوش تأملاته الباسمة بصفير متقطع. وحين يضجر الجدّ من الصفير، يرمقه بعينين ضاحكتين ويغمز بحواجبه:

- كبرتَ وتعلمتَ الشقاوة يا جدو.

يدرك الآن كم كان الجدّ وحيدا وحزينا، لكنه كان مضجرا أيضا، لم تكن بينهما أبدا مساحة مشتركة للحديث .

حاول الجدّ دائما أن يحاصره فى المساحة التى لا يحبها هو؛ الموتى، والفرص الضائعة، والتضحيات التى قدمها له ولأبيه من قبله. هو حاول أن يخلق حياة مشتركة حين فكّر فى الزواج، ربما كانت فكرته أساسا من أجل

الجد؛ امرأه وأولاد، وحياة تطوى بتفاصيلها المتجددة مللُ الأحاديث المعادة.

يبرر نصر فكرته الآن بأنها كانت تضحية، ويقدّر أنه تسرع حتى فى الاختيار. لم يفهم أسباب رفض الجدّ آنذاك، لكن ربما فهم دوافعه بعد ذلك حين انقلب موقفه فوافق وتحمس بشكل مفاجئ. يبدو أنه كان يتمسك بوجوده معه فى دائرة الخطر، البيت المهدد بالانهيار.

●●●

قاوم الجدّ بإصرار فكرة الشقة الجديدة، بل وأخفى حصيلة نهاية الخدمة عن حفيده:

- كلها لا تكفى ثمنا لغرفة فى الريف.

- بل تكفى للحصول على شقة صغيرة فى المدن الجديدة. ادفع المقدم وسأسدد الأقساط.

- وحين أمرض ولا أجد جنيها للعلاج؛ ماذا أفعل يا نصر؟

- سجِّلها باسمك يا جدى، وبعها فى أى وقت تريد.

رفض كل الاقتراحات، وجهز نفسه بحجج كثيرة للمقاومة. رتبها فى رأسه فى جلسات تأمل طويلة، أو خلال مشاوير فى الأسواق والشوارع. عندما تواتيه حجة جديدة يمسكها لسانه بسرعة، ويكررها على نفسه حتى لا تتوه فى رأسه. أحيانا يبدو وكأنه يكلّم نفسه.

مرات كان يداهم نصر بحجج جديدة، تصطادها أفكاره فيواجهه بها فورا، بدون مناسبة وخارج أى سياق:

- .. وترضى أن أعيش فى منفى؟

- أى منفى يا جدى؟

- بعيدا عن أصحابى.

- وهل لك أصحاب هنا يا جدى؟

- أنسيت كوكب، أنسيت صنّارة؟!

لا يعنى هذان الاسمان بالنسبة لنصر سوى الملل والجنون. لا يدرك ما الذى يمكن أن يربط جدّه برجل مثل صنّارة؛ شريد فاقد للذاكرة.

أنقذه كثيرا من أيادى صبيان يضربونه، أو كلاب تطارده. ورآه مرات نائما تحت الأشجار، أو جالسا على الأرصفة، يتأمل وجه القمر ويغنى لنفسه بصوت عجيب": كرولم.. كرو .. لم..".

بعض الناس يخافونه، يرشقونه بالحجارة لكيلا يقترب. حتى كوكب تتجنبه كأنه نجاسة، وحين عادت من أسيوط بعد دفن أبيها جرَت ووقعت على السلالم. دهمها الرعب حين وجدته جالسا فى الفناء المكشوف بين الشقتين، فصرخت ونطّت ووقعت، ووبخت عبد القوى:

- لماذا سمحت له بذلك؟.. إذا مسنى سوء فأنت المسئول.

- هو رجل طيب يا ست الناظرة، يحبكم ويحفظ الجميل، وكان الخواجة يرحمه الله يحبه.

- بل كان يعطف عليه ولم يسمح له أبدا بالطلوع، هى مرة واحدة وبعدها ممنوع، ممنوع.

- هو إنسان مثلنا، لكنه مسكين فقد الذاكرة.

- وهل هذه مسألة بسيطة؟!.. يا أفندى؛ ما لا تعرف أوله لا تستطيع أن تخمن آخره، فاهم.

شهد نصر هذه الواقعة وهو فى العاشرة، كره كوكب وتعجب لضعف جده أمامها. أما صنّارة فظل خارج الموضوع، كان بالنسبة له شيئا لا يستحق التفكير.

أزف الوقت.

لم يستطع نصر أن ينتظر أكثر من ذلك، ترك لجده كلمتين" :أحبك يا جدو".

كان رأسه مثقلا بالهواجس لغياب جده، لكنه قدّر صعوبة الحصول على تاكسى فى مثل هذا الصباح الشتائى، وقدّر أيضا بطء الإجراءات فى المطار. لم ينتبه لكوكب وهى تراقبه من خلف الشرّاعة، حمَل الحقيبة على كتفه ونزل، تلمّس موضع خطوه فى وحل الشارع.

عبَر بوَّابة المطار مع أوان الفجر. تلفَّت ليرى لكن وطأة السحب السوداء كانت ثقيلة، لم يستطع أن يتخيَّل صياح الديكة، ولا حتى زقزقة عصافير الأوهام.

يسكن صنَّارة أحد مخازن الصاوى وأولاده، ينام داخله فى الشتاء وعلى سطحه فى الصيف. لا يعتمد عليه الصاوى فى الحراسة وإنما يعتبره مجرد منظر، ويعتبر أجره عملا من أعمال البر. عموما لا يزيد أجره عن كسوة، والأكل متوفِّر دائما.

دفع عبد القوى الباب فتوثَّب صنَّاوة خلف ضوء شمعة، وانتصبت رقبته النحيلة بين أقفاص البرتقال والعنب والرمَّان:

- من؟

- أنا عبد القوى، ألا تعرفنى؟!

- أعرف أنك عبد القوى، نعم عبد القوى، لكننى أسألك" :من أنا"؟

سرى الرعد فى أوصال الرجلين، وتقلَّب البرق فى عيونهما، فأعاد تشكيل المشهد على نحو غرائبى.

عبر عبد القوى ضوء الشمعة بحذر، وتأمل وجه صنَّارة كأنه يراه لأول مرة؛ مثلث مرسوم بإتقان كأنه هرم، تضيق قمته فى منبت الشعر عند منتصف الرأس، ويتسع عند القاعدة مرتكزا على فم واسع وفك سفلىّ عريض. تودَّد إليه:

- أنت صنَّارة، لماذا لا تصدق الاسم الذى اختاره لك الناس؟

- ليس هذا هو اسمى، كلكم تعرفون ذلك، لكنكم تسخرون منى، وتنكرون

علىَّ أن يكون لى اسم.

ـ صدِّقنى؛ الجميع يحبونك، ويعرفون أنك أمهر النجَّارين. أنا أتيت فى الليل وتحت المطر لأطلب منك أن تصلح بابى؛ تسد شقوق الخشب، وتصلح الترابيس.

ـ لن أفعل ما تريد، ولن يفيدك إصلاح الباب فى شىء، تيمور ابن الصاوى اشترى البيت، ودفع الثمن لبسيونى أمس.

كان فكه السفلى يسقط بين كلمة وكلمة، يسقط وينطبق فجأة كأنه يتكتّم بكاء أو ضحكا، وكان ذلك يجعل صوته أجوفَ بطئ الإيقاع. تجمد صوته فى النهاية على نفخة نسيان.

●●●

كان عبد القوى يرتجف من البرد والبلل فى عودته، تغوص عصاه فى الوحل، وهو يزحف خلفها ويفكر فيما يمكن أن يعنيه شراء تيمور للبيت.

بكى وهو يقرأ الكلمتين بصوت عال" :أحبك يا جدو". بكى بلا دموع لكن بصوت عال. لم ينتبه أن كوكب خلفه، ترقبته طول الليل، ولما عاد تبعته فى صمت. انتبه، فبسط راحته على الورقة، وقال لها:

ـ خلاص، سافر.

ـ افتكر ربك، هو قادر، وكما فرّق يلمّ.

ظل واقفا فى مكانه ملتصقا بوحل حذائه، حاذر أن يخطو فوق السجادة أو يجلس على الكرسى، كان مثقلا بماء المطر. تردد قبل أن يبلغها الخبر:

ـ تيمور ابن الصاوى اشترى البيت؛ لن يرحمنا.

ـ من أخبرك بذلك؟

ـ صنَّارة.

- وهل يعرف هذا الأهبل ما لا نعرف؟!

- أظنه الوحيد بيننا الذى كان يفكر دائما، كان يحاول أن يتذكر بعد أن أضلَّه الأراجوز واستدرجه للنسيان.

ثم أطرق وصارحها:

- أظن أن لكل واحد منَّا أراجوز يخصه، أراجوز خدعه بشكل ما، استدرجه وتخلَّى عنه. أراجوزى كان بهيئة مختلفة، ببذلة وطربوش وذيل حصان.

طوت كوكب السجادة أمامه، وقادت خطواته إلى الحمام، وهى تحذره من التهاب رئوى:

- اخلع هدومك بسرعة، وجفِّف جسمك جيدا. سأعد لك كوب حليب دافئ.

حين عادت كان عبد القوى عاريا متكورا على كنبة الأنتريه، يعطس ويمسح أنفه بالفوطة، ويحاول أن يدارى عورته مثل طفل. ساعدته على ارتداء ملابسه، ولفَّته فى بطانية، ثم سقته بيدها:

- اشرب بسرعة قبل أن يبرد الحليب.

وقالت له:

- عندى كوفية قديمة، لا ليست قديمة، وإن كنت اشتريت خيوطها منذ زمن بعيد. صوف خالص. لا أعرف لمن كنت أنسجها، الليلة أتممتها، هى لك. كنت جنبى طول الوقت فلماذا لم أفكر فيك. سأحضرها، وبعدها يمكننا أن نفكر فيما يمكن أن نفعل مع ابن الصاوى.

كانت الشروخ تضيق وتتسع فى وجه العجوزين وهما يحاولان الابتسام.

انتظر نصر فى صالة المغادرة ساعتين، تأخَّر إقلاع الطائرة بسبب سوء الأحوال الجوية. أعاد فحص أوراقه وجيوبه أكثر من مرة ليتأكد أنه لم ينس شيئا. بحث عن تليفون وكلم جده، رنّ الجرس طويلا قبل أن يسمع صوته.

- حبيبى يا جدو..

- نصر؛ أين أنت؟

- مازلت فى المطار. وأنت؛ أين كنت يا شقى؟

- أنت استعجلت، لم تنتظرنى.

- قلقت عليك، إياك أن تموت يا جدى، قاوح حتى أرجع، سنة واحدة وراجع.

- ارجع الآن يا نصر.

- الآن خلاص، الحقيبة فى الطائرة.

وأكد عليه:

- إياك أن تموت ياجدى.. سنة وراجع، قاوح.

انتهى كارت التليفون، وانقطع الخط.

حين دخلت كوكب بالكوفية الحمراء، كان عبد القوى لا يزال يهز السماعة فوق أذنه، ويتعثر فى السلك الطويل. هى لفَّت رقبته بالكوفية، وهو أشار لوشيش الخط المقطوع، وقال لها:

- نصر.

●●●

ebooks4arabs.blogspot.com

● نداءات الباعة والأغاني في هذه الرواية من المأثور الشعبي، أما ترانيم كوكب فهي من كتاب الصلوات القبطية الخولاجي وكتاب سير القديسين السنكسار.

محمد ناجى
روائى وصحفى مصرى

صدر له:

خافية قمر

دار الهلال - مصر ١٩٩٤

ترجمت للإسبانية

لحن الصباح

الطبعة الأولى – دار مصر العربية – مصر ١٩٩٤

الطبعة الثانية – مكتبة الأسرة – مصر ٢٠٠٥

ترجمت للإسبانية والفرنسية

مقامات عربية

الطبعة الأولى – دار الهلال – مصر ١٩٩٩

الطبعة الثانية – دار نارة – الأردن ٢٠٠٦

العايقة بنت الزين

الطبعة الأولى – دار الهلال – مصر ٢٠٠١

الطبعة الثانية – مكتبة الأسرة – مصر ٢٠٠٦

رجل أبله .. امرأة تافهة

الطبعة الأولى – دار الهلال – مصر ٢٠٠٢

الطبعة الثانية – دار نارة – الأردن ٢٠٠٦

الأفندى

الطبعة الأولى – دار الهلال – مصر ٢٠٠٨

الطبعة الثانية – مكتبة الأسرة – مصر ٢٠٠٩

mohammednagy@hotmail.com

هـذه الروايـة

يتخبَّط الجد «عبدالقوى» بين الشروخ، ويرقب من خلالها الأضواء الشاحبة فى بيت جارته «كوكب». الليلة ليلة سفر حفيده «نصر»، لم يعد إلا سواد الليل ويرحل الحفيد، ويبقى هو وحيدا فى مواجهة البيت المهدد بالانهيار.

فى الشقة المقابلة يقود الراعى الصالح خرافه عبر الممر الصعب أمام سرير كوكب، ويده المرفرفة فوق القطيع تشير إلى نبع بعيد. جفَّ أزرق النبع وزحفت عليه الصَّفرة، بينما العانس العجوز تتنفس وحدتها ومخاوفها، وهى تترنم بتسبيحة لعذراء الحمل المقدس «التى لم يفلحها فلاّح، ووجد فيها عنقود الحياة».

كانت الشروخ التى تتسع بين الشقتين قد تحولت إلى نوافذ تصل بين الجارين اللذين حكمهما لفترة طويلة تاريخ من الجفاء.

منافذ بيع مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة - ت : ٢٥٧٧٥٣٦٧

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ ش شريف - القاهرة
ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة ساقية عبدالمنعم الصاوى
الزمالك - نهاية ش ٢٦ يوليو
من أبو الفدا - القاهرة

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان - السيدة زينب
أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز
ت : ٢٥٥٠٦٨٨٨

مكتبة الجيزة
١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
بجوار كلية الإعلام - بالحرم الجامعى - الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة - الهرم
مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة
ت : ٣٥٨٥٠٢٩١

مكتبة الإسكندرية

٤٩ ش سعد زغلول - الإسكندرية
ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك - المرحلة الخامسة - عمارة ٦
مدخل (أ) - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى - بكلية الزراعة -
الجامعة الجديدة - الإسماعيلية
ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة
ناصية ش ١١، ١٤ - بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى - أسوان
ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ ش الجمهورية - أسيوط
ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب - المنيا
ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب -جامعة المنيا - المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة - عمارة سينما أمير - طنطا
ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد
عمارة الضرائب سابقاً

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى - دمنهور

مكتبة المنصورة

٥ ش الثورة - المنصورة
ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكتبة منوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية
جامعة منوف

مكتبات ووكلاء
البيع بالدول العربية

لبنان

١ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب

شارع صيدنايا المصيطبة - بناية الدوحة- بيروت - ت: ٩٦١/١/٧٠٢١٣٣

ص. ب : ٩١١٣ - ١١ بيروت - لبنان

٢ - مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب

بيروت - الفرع الجديد - شارع الصيدانى - الحمراء - رأس بيروت - بناية سنتر ماريا

ص. ب : ١١٣/٥٧٥٢

فاكس: ٠٠٩٦١/١/٦٥٩١٥٠

سوريا

دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع -

سوريا - دمشق - شارع كرجيه حداد - المتفرع من شارع ٢٩ أيار - ص. ب: ٧٣٦٦ - الجمهورية العربية السورية

تونس

المكتبة الحديثة - ٤ شارع الطاهر صفر- ٤٠٠٠ سوسة - الجمهورية التونسية .

المملكة العربية السعودية

١ - مؤسسة العبيكان - الرياض

(ص. ب: ٦٢٨٠٧) رمز ١١٥٩٥ - تقاطع طريق الملك فهد مع طريق العروبة - هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ - ٤١٦٠٠١٨ .

٢ - شركة كنوز المعرفة للمطبوعات والأدوات الكتابية - جدة - الشرفية - شارع الستين - ص. ب: ٣٠٧٤٦ جدة : ٢١٤٨٧ - ت : المكتب: ٦٥٧٠٧٢٢ - ٦٥١٠٤٢١ - ٦٥١٤٢٢٢ - ٦٥٧٠٦٢٨.

٣ - مكتبة الرشد للنشر والتوزيع -

الرياض - المملكة العربية السعودية - ص. ب: ١٧٥٢٢ الرياض: ١١٤٩٤ - ت: ٤٥٩٣٤٥١.

٤ - مؤسسة عبدالرحمن السديرى الخيرية - الجوف - المملكة العربية السعودية - دار الجوف للعلوم ص. ب: ٤٥٨ الجوف - هاتف: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٣٩٦٠ فاكس: ٠٠٩٦٦٤٦٢٤٧٧٨٠

الأردن - عمان

١ - دار الشروق للنشر والتوزيع

ت: ٤٦١٨١٩٠ - ٤٦١٨١٩١

فاكس: ٠٠٩٦٢٦٤٦١٠٠٦٥

٢ - دار اليازورى العلمية للنشر والتوزيع

عمان - وسط البلد - شارع الملك حسين

ت: ٩٦٢٦٤٦٢٦٦٢٦ +

تلفاكس: ٩٦٢٦٤٦١٤١٨٥ +

ص. ب: ٥٢٠٦٤٦ - عمان: ١١١٥٢ الأردن.

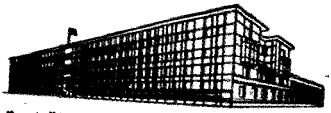

الطباعة: مؤسسة دار الهلال - القاهرة

طبعة خاصة لمكتبة الأسرة ٢٠١٠ - ٢٠١١

تذكرت بمناسبة مرور عشرين عاما على بدء مشروع القراءة للجميع عام ١٩٩٠، حكاية تقول إن الفيلسوف اليوناني أرسطو كان معلماً للإسكندر المقدوني، وإنه استطاع أن يشحن وجدان الإسكندر، ويشحذ رغبته ولعابه بكل أشكال التعليم والقراءة، حتى إن الإسكندر لم يكن يظهر إلا وفي يده كتاب. لكن حدث خلال إحدى رحلاته إلى آسيا أن عانى قلة الكتب، فإذ به يأمر أحد قادة جيوشه أن يحضر له بعض ما يقرؤه وكأن هذه الحكاية قد جاءت تذكرها بمثابة حساب للنفس عما أنجزناه حتى لا يعاني أحد قلة الكتب وجودا وثمنا، فتجلت مكتبة الأسرة، التي بدأت عام ١٩٩٤، هي المصالحة الواقعية التي تجاوزنا بها تلك المشكلة، تحقيقا للإتاحة العامة للكتاب، وذلك بالربط بين اتساع إصداراتها المتنوعة في شتى مجالات المعرفة، والدعم المادي الذي تتمتع به أسعار تلك الإصدارات، فتجعلها في متناول الجميع. وقد تلازم نشاط مكتبة الأسرة لسنوات عدة مع فعاليات مشروع القراءة للجميع، لكننا أخيرا أكدنا ضرورة استمرار إصدارات مكتبة الأسرة طول العام، انطلاقا من حكمة قديمة مازالت تعاصرنا، وهي أن من يستطيع القراءة يستطيع رؤية ضعف ما يراه الآخرون.

سوزان مبارك

ISBN# 9789774214671

٢ جنيه